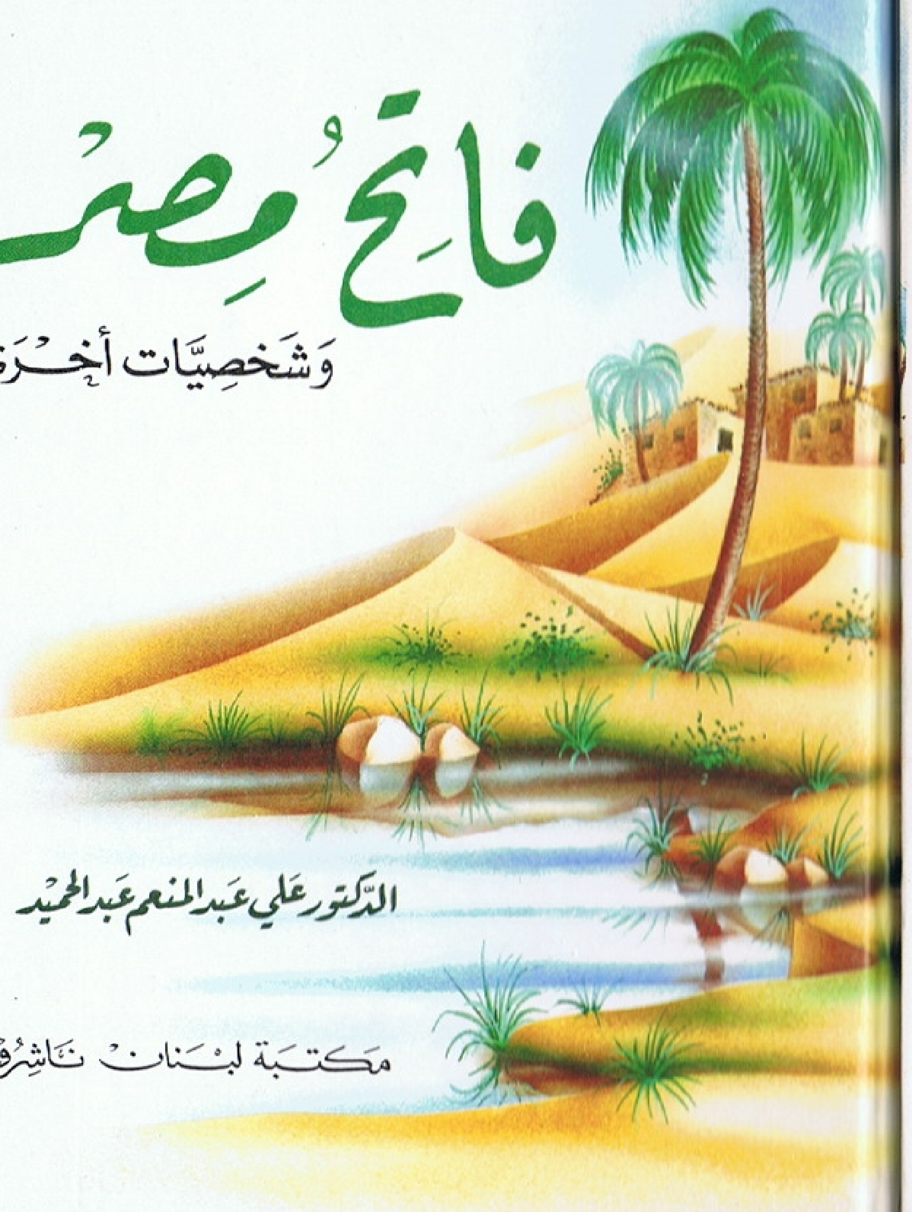
سلسلة رياض الإيمان
نفحات من سيرة الرسول وصحبه

فاتح مصر
وشخصيات أخرى



الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون

رياض الإيمان
فاتح مصر وشخصيات أخرى
مكتبة لبنان ناشرون

رياض الإيمان
سلسلة تربوية تثقيفية إسلامية

رياض الإيمان شذا فواح من حياة الرسول ﷺ وصحابته، يضوع في الآفاق، فيغمر القلوب بعطره، ويحيي النفوس بصدقه؛ فتجد فيه الأسوة التي تفتقدها، والقدوة التي تنشدها؛ فقد كانت حياتهم التطبيق العملي لما أنزله الله على رسوله.

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

01R160610

الشركة المصريّة العالميّة للنشر - لونجمان
مكتبة لبنان ناشرون

فاتح مصر

و شخصيّات أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم ۞ محمد رسول الله
والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا
يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود
ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه
فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم
الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم
مغفرة وأجرا عظيما ﴿٢٩﴾

رياض الإيمان

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

فاتِحُ مِصر وشخصيّات أخرى

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون   الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ) ، شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٨

رقم الإيداع ١٤١٢٨ / ١٩٩٧

الترقيم الدولي X - ٠٢٩٠ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

أوَّلُ مُبشِّرٍ بالإسلامِ خارِجَ مكَّة

مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْر

مَنحَ اللهُ والِدَهُ مالاً وَفيرًا ، وثَراءً عَريضًا ، وكَذلكَ أُمَّهُ ، الَّتي كانَتْ تُحِبُّهُ حُبًا جمًّا ، وتُغْدِقُ عَلَيْهِ المالَ إغْداقًا لا حَدَّ لَهُ ، بَلْ وتُحَكِّمُهُ في مالِها ، ولا تَرُدُّ لَهُ طَلَبًا ، ولا تَقِفُ لَهُ دونَ رَغْبَةٍ ، بَلْ كانَتْ تَسْتَشْعِرُ رَغْبَتَهُ فَتُسْرِعُ إلى تَحْقيقِها قَبْلَ أنْ يُفْصِحَ عَنْها .

ولكِنَّ هَذا الغِنى الواسِعَ ، وهَذا التَّرفَ البالِغَ ، لَمْ يَجْنَحا بِهِ إلى العَبَثِ واللَّهْوِ ، ولَمْ يُفْسِدا مِزاجَهُ ، ولَمْ يُشوِّها طَبيعَتَهُ ، فَقَدْ كانَ رَضِيَّ الخُلُقِ ، سَمْحَ الطَّبْعِ ، مُعْتَدِلَ المِزاجِ ، كَما كانَ جَميلَ المُحَيَّا ، بَهِيَّ الطَّلْعَةِ ، وَسيمًا قَسيمًا .

ولَكِنَّهُما - الغِنى والتَّرَفَ - أَلْبَساهُ زِيًّا جَميلاً ، وأَسْبَغا عَلَيْهِ بَهاءً فَوْقَ بَهائِهِ ، وَصَفاءً في فِكْرِهِ ، وحَصافَةً في رَأْيِهِ ، ورَجاحَةً في عَقْلِهِ ، وقَبولاً عِنْدَ مَجالِسِ قُرَيْش ، الَّتي كانَتْ رائِحَةُ عِطْرِهِ الَّتي تَضوعُ في الآفاقِ - تُنَبِّئُها بِقُدومِهِ قَبْلَ أنْ يَقْدَمَ عَلَيْها بِزَمَنٍ غَيْرِ قَليلٍ !

خَرَجَ ذاتَ صَباحٍ مِنْ دارِهِ ، رائِقَ المِزاجِ ، صافِيَ الذِّهْنِ ، تُعْلِنُ رائِحَتُهُ الفَوّاحَةُ عَنْ حُضورِهِ ، فَلَقِيَتْهُ جَماعَةٌ مِنْ شَبابِ قُرَيْش ، في طَريقِها إلى الصَّيْدِ والقَنْصِ ، فَدَعَتْهُ إلى مُشارَكَتِها هَذا اللَّهْوَ البَريءَ - فَلَمْ يُجِبْها إلى طَلْبَتِها ، لأَنَّهُ لَمْ يُحِبَّ هَذا النَّوْعَ مِنَ اللَّهْوِ ، الَّذي يُؤَدِّي إلى سَفْكِ دِماءِ الحَيَوانِ . ومَضى في طَريقِهِ كَما تَسوقُهُ قَدَماهُ ، لا يَضَعُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ هَدَفًا مُعَيَّنًا ، يَسْعى نَحْوَ بُلوغِهِ . . وبَيْنَما هُوَ في طَريقِهِ صادَفَتْهُ جَماعَةٌ أُخْرى مِنْ شَبابِ قُرَيْش ، تَقْصِدُ إلى حانَةٍ مِنْ تِلْكَ الحاناتِ الرُّومِيَّةِ المُنْتَشِرَةِ في مَكَّةَ ، تَبيعُ نَبيذَ الشَّامِ ،

فَأَلَحَّتْ عَلَيْهِ فِي مُشارَكَتِها ، ولَكِنَّهُ صَدَفَ عَنْها ، وأَعْرَضَ عَنْ قَبولِ دَعْوَتِها ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُؤْثِرُ هَذا الشَّرابَ الَّذي يُذْهِبُ العَقْلَ ، ويُضيعُ الحِلْمَ ، ويُفْسِدُ الهَيْبَةَ والوَقارَ !

وآثَرَ أَنْ يَمْضِيَ إلى المَسْجِدِ ، حَيْثُ أَنْدِيَةُ قُرَيْشٍ ؛ كَيْ يَسْتَمْتِعَ بِما يَدورُ بَيْنَ شُيوخِها مِنْ نِقاشٍ وحِوارٍ ، وما أَمْتَعَ النِّقاشَ يَدورُ بَيْنَ شُيوخِ قُرَيْشٍ ! و ما أَلَذَّ حِوارَهُمْ !

* * *

وَقَفَ الشّابُّ « مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ » عَلى أَحَدِ هَذِهِ الأَنْدِيَةِ ، فَوَجَدَ النِّقاشَ يَدورُ بَيْنَ الشُّيوخِ مُحْتَدِمًا ، والحِوارَ يَمْضي بَيْنَهُمْ عَنيفًا صاخِبًا ، فَشاقَهُ أَنْ يَتَعَرَّفَ جَلِيَّةَ الأَمْرِ ، ويَسْتَوْضِحَ مَوضوعَ النِّقاشِ والحِوارِ ، فَجَلَسَ مُسْتَنِدًا إلى حائِطِ الكَعْبَةِ ، و أَلْقَى إِلَيْهِمْ سَمْعَهُ كُلَّهُ ، فلا تَفوتُهُ كَلِمَةٌ ، ولا تَشْرُدُ عَنْهُ حَرَكَةٌ .

كانوا يَخْتَصِمونَ في أَمْرِ هذا الرَّجُلِ القُرَشِيِّ ، الَّذي

يَنْتَسِبُ إلى خَيْرِ بُيوتِهِمْ ، وأَوْسَطِها حَسَبًا ونَسَبًا ، وأَشَدِّها عَلى نَفْسِهِ تَدَيُّنًا ، وهُمْ يَعْرِفونَ وَضاءَةَ خُلُقِهِ ، وسَماحَةَ نَفْسِهِ ، وقَدْ خَلَعوا عَلَيْهِ لَقَبَ « الصّادِقِ الأَمينِ » فَما يَدْعونَهُ بِغَيْرِهِ ، وقَدِ ارْتَضَوْهُ حَكَمًا عَدْلاً حينَ كادَتِ الأُمورُ تَفْسُدُ بَيْنَهُمْ ، وهُمْ يُجَدِّدونَ بِناءَ الكَعْبَةِ . ولَكِنَّهُمْ لا يَرْتَضونَ مِنْهُ ما جاءَهُمْ بِهِ الآنَ ! إنَّهُ يُنْكِرُ الدِّينَ الَّذي أَلِفوهُ عَنْ آبائِهِمْ ، ويُسَفِّهُ أَصْنامَهُمْ ، ويَدْعوهُمْ إلى عِبادَةِ إِلَهٍ واحِدٍ لا شَريكَ لَهُ ، هُوَ خالِقُ السَّماءِ والأَرْضِ ، ومُدَبِّرُ الأَمْرِ فيهِما ، وهُوَ الرَّزّاقُ والمُحْيي والمُميتُ ، ويُنَبِّئُهُمْ بِأَنَّ هُناكَ بَعْثًا بَعْدَ المَوْتِ ، وحِسابًا دَقيقًا عادِلاً عَلى أَعْمالِهِمْ في الدُّنْيا ، فَإِنْ عَمِلوا خَيْرًا فَالجَزاءُ خَيْرٌ ، وإِنِ اكْتَسَبوا شَرًّا فَالجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ .

ويَشْتَدُّ الجِدالُ بَيْنَ القَوْمِ في مَوْقِفِهِمْ مِنْ « مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ » ﷺ : فَعَلى حينِ يَعْنُفُ الشَّبابُ ويَثورونَ ،

ويرَوْنَ أنْ تُطْلَق أَيْديهِمْ في الضَّرْبِ عَلى يَدِهِ ، بَلْ والفَتْكِ بِهِ إنِ اقْتَضى الأمْرُ ذلِكَ ، حَتّى لا يُفْسِدَ عَلَيْهِم ضُعَفاءَهُمْ ، ولا يَتَفَشّى أَمْرُهُ بَيْنَ عَبيدِهِم ، فَيَتَحَدَّثوا عَنِ الْمُساواةِ والعَدالَةِ - يَرى « مُصْعَبٌ » أنَّ لِلشُّيوخِ رَأْيًا مُخالِفًا ، فَهُمْ يَرَوْنَ أَخْذَهُ بِالسِّياسَةِ واللِّينِ ، والتَّحَدُّث إلى عَمِّهِ « أبي طالِبٍ » الَّذي يَحْميهِ ويُدافِعُ عَنْهُ ، والتَّحَدُّثِ إلَيْهِ هُوَ فيما يُريدُ ، وذَلِكَ حَتّى لا تَضْرِبَ قُرَيْشٌ بَعْضَها بَعْضًا ، فَتَطْمَعَ فيها قَبائِلُ العَرَبِ ، ولا تَصونَ لَها عَهْدًا ، ولا تَرْعى لَها حُرْمَةً !

يَشْتَدُّ الجِدالُ في أمْرِ « مُحَمَّدٍ » ﷺ ، فَيَعْنُفُ تارَةً ، ويَهْدَأُ تارَةً أُخْرى ، و الشّابُّ « مُصْعَبٌ » جالِسٌ غَيْرَ بَعيدٍ ، يُصْغي إلى الكَلامِ العَنيفِ الصّاخِبِ ، كَما يُصْغي إلى الكَلامِ الوَقورِ الهادِئِ ، ويُعْمِلُ فِكْرَهُ فيهِ كُلِّهِ ، فَيَتَحَرَّكُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ شُعورٌ غامِضٌ مُبْهَمٌ ، ولَكِنَّهُ يَتَّضِحُ لَحْظَةً بَعْدَ لَحْظَةٍ ، حَتّى تَتَحَدَّدَ مَعالِمُهُ ، وتَتَبَيَّنَ

مَلامِحُهُ . يَبْدَأُ هَذا الشُّعورُ ضَعيفًا خافِتًا ، ثُمَّ يَأْخُذُ في القُوَّةِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتّى يَبْلُغَ مِنَ القُوَّةِ دَرَجَةً ، لا يَسْتَطيعُ « مُصْعَبٌ » لَها مُقاوَمَةً ولا عَلَيْها امْتِناعًا !

ويَنْهَضُ « مُصْعَبٌ » مِنْ مَجْلِسِهِ ، تَدْفَعُهُ هَذِهِ القُوَّةُ الغامِضَةُ الخَفِيَّةُ الَّتي اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ ، واسْتَبَدَّتْ بِهِ ، فَإذا هُوَ يَسْلُكُ طَريقَهُ إلى دارِ « الأَرْقَمِ بْنِ أَبي الأَرْقَمِ » ، حَيْثُ يوجَدُ « مُحَمَّدٌ » ﷺ وأَصْحابُهُ .. ولَوْ أَنَّ سائِلاً سَأَلَهُ حينَئِذٍ لِماذا يَأْخُذُ طَريقَهُ إلى دارِ الأَرْقَمِ ؟ أَيُريدُ أَنْ يَدْخُلَ في الإسْلامِ ؟ أَيُريدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلى هَؤُلاءِ القَوْمِ الَّذينَ سَمِعَ عَنْهُمْ ؟ لَوْ أَنَّ سائِلاً سَأَلَهُ - ما اسْتَطاعَ أَنْ يُحيرَ جَوابًا !

ولَكِنَّهُ يَبْلُغُ دارَ الأَرْقَمِ ، ويَطْرُقُ البابَ طَرْقًا خَفيفًا ، ويُفْتَحُ لَهُ البابُ .

دَخَلَ « مُصْعَبٌ » عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ وصَحْبِهِ ، فَحَيّا وجَلَسَ ، ونَظَرَ إلَيْهِ الصَّحابَةُ نَظْرَةً حانِيَةً ، تَفيضُ بِالْمَوَدَّةِ

والْمَحَبَّةِ ، وتَنْضَحُ بِرًّا ورَحْمَةً ، وإذا هُوَ يَجِدُ لِنَظَراتِهِمْ في نَفْسِهِ وَقْعًا لَطِيفًا ، ويُحِسُّها في صَدْرِهِ سَكِينَةً وأَمْنًا ، وفي قَلْبِهِ هُدوءًا واطْمِئْنانًا . وتَحْيا في نَفْسِ كُلِّ واحِدٍ مِنْ أَصْحابِ الرَّسولِ الكَرِيمِ أُمْنِيَّةٌ أَنْ يَدْخُلَ هَذا الشّابُّ في الإسْلامِ ؛ لِيَحْظَى بِما يَحْظَوْنَ مِنْ خَيْرٍ !

ولَكِنَّ الصَّحابَةَ سَرْعانَ ما يَنْصَرِفونَ عَنْ « مُصْعَبٍ » ، وتَتَحَوَّلُ نَظَراتُهُمْ عَنْهُ ؛ فَقَدْ بَدَأَ الرَّسولُ ﷺ يُحَدِّثُهُمْ ويَعِظُهُمْ ، ويُعَلِّمُهُمْ ويُفَقِّهُهُمْ ، ويَتْلو عَلَيْهِمْ آياتٍ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ ، الَّذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ . . ولَكِنَّ « مُصْعَبًا » لَمْ يَنْصَرِفْ عَنْهُمْ ، وإنَّما شُدَّ قَلْبُهُ إلَيْهِمْ شَدًّا قَوِيًّا ، ومالَتْ نَفْسُهُ إلَيْهِمْ مَيْلاً عَظِيمًا ، وتَعَلَّقَ قَلْبُهُ بالرَّسولِ ﷺ تَعَلُّقًا بالِغًا ، وراحَ يَتَذَوَّقُ حَلاوَةَ ما يَسْمَعُ مِنْ قُرْآنٍ ، وتَتَشَرَّبُ روحُهُ ما يَسْمَعُ مِنْ حَدِيثٍ ، وإذا هُوَ يَنْهَضُ مِنْ مَجْلِسِهِ ، بَعْدَ أَنْ صَمَتَ الرَّسولُ ﷺ ، ويَمُدُّ يَدَهُ إلى الرَّسولِ الأَمِينِ مُسْلِمًا مُبايِعًا ؛ فَأَشْرَقَ وَجْهُ الرَّسولِ

الكَرِيمِ وبَرَقَ ، وانْبَسَطَتْ أَسارِيرُ الصَّحابَةِ ؛ فَقَدْ غَنِمَ الإسْلامُ شابًّا ، وازْدادَ الْمُسْلِمونَ واحِدًا !

* * *

وكَتَمَ « مُصْعَبٌ » إسْلامَهُ ؛ خَشْيَةَ أَنْ تَضِيقَ بِهِ أُمُّهُ ، وقَدْ كانَ لَها مُحِبًّا ، وبِها شَغوفًا ، وعَلَيْها عَطوفًا ، كَما كانَ يَوَدُّ أَلاّ يَنْقَطِعَ عَنْهُ ما تُمِدُّهُ بِهِ مِنْ مالٍ وَفِيرٍ ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعِينَ بِهِ الْمُسْلِمِينَ ، ولَكِنْ ما أَسْرَعَ ما تَنَكَّرَ لَهُ أَبَواهُ ، ومَسَّهُ الضُّرُّ مَسًّا رَفِيقًا ، ثُمَّ مَسًّا خَشِنًا غَلِيظًا ، فَقَدْ رَآهُ « عُثْمانُ بْنُ طَلْحَةَ » وهُوَ يُصَلِّي ، فَأَسْرَعَ يُنَبِّئُ أَبَوَيْهِ بِما رَآهُ ! وإذا « مُصْعَبٌ » يُصْبِحُ – مِثْلَ كَثِيرٍ غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الأَوائِلِ – فَقِيرًا ، يَحْتَمِلُ مِنَ الضُّرِّ والأَذَى ما يَحْتَمِلونَ ، ويَجِدونَ الصَّبْرَ والعَزاءَ فِيما يَسْتَمِعونَ إلَيْهِ مِنَ الرَّسولِ الكَرِيمِ ، وفِيما يُسْبِغُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ حُنُوٍّ دافِقٍ ، وبِرٍّ عَظِيمٍ .

ولَمّا اشْتَدَّ الأَذَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ أَذِنَ الرَّسولُ ﷺ

لَهُمْ في الهِجْرَةِ إلى الْحَبَشَةِ ؛ حَيْثُ يَجِدونَ عِنْدَ النَّجاشِيِّ الأَمْنَ والسَّلامَ ، ويَسْتَطيعونَ عِبادَةَ رَبِّهِمْ ، وإقامَةَ شَعائِرِهِمْ في هُدوءٍ واطْمِئْنان – فَهاجَرَ « مُصْعَبٌ » مَعَ الْمُهاجِرينَ ، ولَكِنَّهُ لَمْ يُطِقْ أَنْ يَحْتَمِلَ البُعْدَ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ؛ فَعادَ إلى مَكَّةَ ، يَنْعَمُ بِصُحْبَةِ الرَّسولِ الكَريمِ وجِوارِهِ ، و يُخَفِّفُ عَنْهُ ذَلِكَ ما يَلْقاهُ مِنْ عَنَتِ الْمُشْرِكينَ ، وما يَصُبّونَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَذًى وتَنْكيلٍ . ولَكِنَّ أَذى الْمُشْرِكينَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ ، ويَضيقُ صَدْرُهُ بِهِ ، فَيُهاجِرُ مَرَّةً أُخْرى إلى الْحَبَشَةِ ، فَيَنْعَمُ بِالهُدوءِ ، وحُرِّيَّةِ العِبادَةِ ، بَيْدَ أَنَّهُ لا يُطيقُ صَبْرًا عَلى فِراقِ الرَّسولِ ﷺ ، ويَتَمَزَّقُ أَسًى لِهَذا الفِراقِ الَّذي فُرِضَ عَلَيْهِ ، ويَهُدُّهُ الحَنينُ هَدًّا ، فَلا يَجِدُ مَفَرًّا مِنَ العَوْدَةِ إلى مَكَّةَ ، يُطْفِئُ شَوْقَهُ إلى حَبيبِهِ الرَّسولِ الأَمينِ ، ولْيَصْبِرْ عَلى ما يَلْقاهُ مِنْ أَذًى وتَنْكيلٍ ، فَهُوَ أَخَفُّ وَطْأَةً مِنْ فِراقِ الرَّسولِ الكَريمِ !

عادَ « مُصْعَبٌ » إلى مَكَّةَ ، فَلَمّا دَخَلَ عَلى الرَّسولِ

ﷺ وأَبْصَرَهُ الصَّحابَةُ – غَضّوا أَبْصارَهُمْ ، وطَأْطَئوا رُءوسَهُمْ حَياءً وخَجَلاً مِنْ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطيعونَ أَنْ يَمُدّوا لَهُ يَدَ العَوْنِ ! لَقَدْ رَأَوْا رَجُلاً رَثَّ الثِّيابِ ، الَّتي لا تَكادُ تَسْتُرُ جَسَدَهُ إلا بَعْدَ احْتِيالٍ شَديدٍ ، ورَأَوْا جِسْمَهُ قَدْ تَغَضَّنَ وامْتَلأَ بِالأَخاديدِ ، بَعْدَ أَنْ كانَ ناعِمًا رَقيقًا ، فَأَيْنَ هُمْ مِنْ « مُصْعَبٍ » الَّذي لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ في مَكَّةَ يَنْعَمُ بِمِثْلِ ما كانَ يَنْعَمُ بِهِ عِنْدَ أَبَوَيْهِ ؟ لَقَدْ تَخَلَّى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ في سَبيلِ اللهِ ورَسولِهِ !

لَزِمَ الشّابُّ « مُصْعَبٌ » رَسولَ اللهِ ﷺ كَما يَلْزَمُ الظِّلُّ صاحِبَهُ ، يَحْفَظُ عَنْهُ ما يَتَنَزَّلُ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ فَيُتْقِنُ الحِفْظَ ، ويَتَعَلَّمُ مِنْهُ أَحْكامَ الدِّينِ فَيُحْسِنُ التَّعَلُّمَ ، حَتّى غَدا مِنْ أَجْوَدِ الصَّحابَةِ حِفْظًا ، وأَحْسَنِهِمْ فِقْهًا ، وأَشَدِّهِمْ بِالدِّينِ القَويمِ بَصَرًا . . وما تَكادُ تَحْدُثُ بَيْعَةُ العَقَبَةِ الأُولى ، ويَطْلُبُ الْمُبايِعونَ مِنَ الرَّسولِ الكَريمِ أَنْ يَبْعَثَ مَعَهُمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ ويُقْرِئُهُمُ القُرْآنَ الكَريمَ ، ويُبَشِّرُ

بِالدِّينِ في يَثْرِبَ (الْمَدِينَةِ) – حَتّى يَسْتَجِيبَ الرَّسولُ ﷺ لِرَغْبَتِهِمْ ، ويُلَبِّيَ حاجَتَهُمْ ، ويُرْسِلَ مَعَهُمْ « مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ » ؛ فَيَكونَ « أَوَّلَ مُبَشِّرٍ بِالإِسْلامِ » خارِجَ مَكَّةَ !

ويُوَفَّقُ « مُصْعَبٌ » في مُهِمَّتِهِ التَّوْفيقَ كُلَّهُ ، ويَبْلُغُ فيها مِنَ النَّجاحِ غايَتَهُ ، تُعِينُهُ في ذَلِكَ عُذُوبَةُ صَوْتِهِ وهُوَ يَتْلو القُرْآنَ ، وما يَشيعُ في تِلاوَتِهِ مِنْ حَلاوَةِ الإيمانِ ، فَتَتَفَتَّحُ لَهُ القُلوبُ قَبْلَ الآذانِ ، ويَدْخُلُ في الإِسْلامِ عَلى يَدَيْهِ كَثيرونَ . ويَأْتي في العامِ الْمُقْبِلِ ومَعَهُ مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ – أَصْحابِ يَثْرِبَ – اثْنانِ وسَبْعونَ رَجُلاً وامْرَأَتانِ ، وتَكونُ بَيْعَةُ العَقَبَةِ الثّانِيَةُ .

وتَعْلَمُ أُمُّهُ بِمَقْدَمِهِ إِلى مَكَّةَ ، فَتَبْعَثُ إِلَيْهِ تَلومُهُ عَلى عَدَمِ زِيارَتِهِ لَها فَوْرَ قُدومِهِ ، فَيَسْعى إِلَيْها بَرًّا بِها ، وإِشْفاقًا عَلَيْها – كَما يَأْمُرُهُ دِينُهُ – وطَمَعًا في إِسْلامِها ، ولَكِنَّها ما تَكادُ تَراهُ حَتّى تُحاوِلَ فِتْنَتَهُ ورَدَّهُ عَنِ الإِسْلامِ إِلى الكُفْرِ ، وتَسْتَعِينَ عَلَيْهِ بِدُموعِها ، وما أَقْوى الدُّموعَ

سِلاحًا عِنْدَ الأُمَّهاتِ ! ولَكِنَّ « مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ » قَدْ صَبَرَ لِلشَّرِّ كُلِّهِ ، فَلْيُعِنْهُ اللهُ عَلى الصَّبْرِ لِدُموعِ أُمِّهِ ! ثُمَّ اجْتاحَتْهُ ثَوْرَةٌ مِنَ الغَضَبِ للهِ ولِرَسولِهِ – فَأَنْذَرَ مَنْ يَتَعَرَّضُ لَهُ في دينِهِ بِالقَتْلِ والإِهْلاكِ !

* * *

أَقامَ « مُصْعَبٌ » إِلى جِوارِ الرَّسولِ ﷺ في مَكَّةَ زَمَنًا ، يَسْتَضِيءُ بِنُورِهِ ، ويَقْبِسُ مِنْ عِلْمِهِ ، حَتّى أَذِنَ اللهُ لِرَسولِهِ في الهِجْرَةِ ، فَتَقَدَّمَ « مُصْعَبٌ » يَسْبِقُهُ إِلى الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، ويَنْتَظِرُهُ فيها .

وما إِنْ يَسْتَقِرَّ الْمُسْلِمونَ في الْمَدينَةِ ؛ حَتّى تَحْدُثَ غَزْوَةُ بَدْرٍ ، فَيَحْمِلُ اللِّواءَ فيها « مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ » ، ويَعودُ بِهِ إِلى الْمَدينَةِ ظافِرًا مَنْصورًا . ويَعيشُ في الْمَدينَةِ كَما يَعيشُ فُقَراءُ الْمُسْلِمينَ ، ويَحْتَمِلُ مِنَ الضُّرِّ والحِرْمانِ ما يَحْتَمِلونَ ، ويَسْتَلِذُّ ذَلِكَ كُلَّهُ في سَبيلِ اللهِ كَما يَسْتَلِذّونَ ، ويَسْتَعْذِبُ الأَلَمَ كَما يَسْتَعْذِبونَ !

وتأتي مَوْقعةُ أُحُدٍ ، ويحمِلُ « مُصْعَبٌ » اللِّواءَ كَما حَمَلَهُ في بَدْرٍ قبْلَها ، ولَكِنَّ المُسْلمين يَنْكَشِفونَ ، بعْدَ أنْ كانَ المُشْرِكونَ يُوَلّونَ أمامَهُم هاربينَ ؛ لأنَّ الرُّماةَ خالَفوا عَنْ أمْرِ الرَّسولِ القائِدِ . ويَتفرَّقُ المُسْلِمونَ عنْ لِوائِهِمْ ، و « مُصْعَبٌ » ثابتٌ لا يَزولُ ولا يَميلُ ، ويُسْرِعُ « ابنُ قُمَيْئَةَ » أَحدُ فُرْسانِ قُرَيْشٍ ، فَيَضْرِبُ بسَيْفِه يَدَ « مُصْعَبٍ » الَّتي تَحْمِلُ اللِّواءَ فَيَقْطَعُها ، فَيُمْسِكُهُ « مُصْعَبٌ » بِيَدِهِ الأُخْرى ، فيَكِرُّ عَلَيْهِ « ابنُ قُمَيْئَةَ » ويَضْرِبُ يَدَهُ الأُخْرى فَيَقْطَعُها ، فَيَضُمُّ « مُصْعَبٌ » اللِّواءَ إلى صَدْرِهِ ، ويَحْميهِ بِعَضُدَيْهِ ، فَيَهْجِمُ عَلَيْهِ « ابنُ قُمَيْئَةَ » ، ويُنْفِذُ الرُّمْحَ في صَدْرِهِ ، فَيَتَلَقّى عَنْهُ اللِّواءَ أَخوهُ « أبو الرّومِ » ، ويَعودُ بِهِ إلى الْمَدينَةِ مَرْفوعًا !

وتَنْجَلي الْمَعْرَكَةُ عَنِ انْتِصارِ قُرَيْشٍ ، ويَعودُ الْمُسْلِمونَ إلى شُهَدائِهِمْ ، لِيَدْفِنوهُمْ ، فَإذا « مُصْعَبٌ » قَدْ سَقَطَ عَلى وَجْهِهِ ، ويَهُمُّ الْمُسْلِمونَ بِدَفْنِهِ ، فَلا

يَجِدونَ لَهُ كَفَنًا ! إنَّ ثَوْبَهُ لا يَسْتُرُ جَسَدَهُ ، فَإنْ غَطَّوْا بِهِ أَعْلاهُ انْكَشَفَ أَسْفَلُهُ ، و إنْ غَطَّوْا بِهِ أَسْفَلَهُ انْكَشَفَ أَعْلاهُ ! فَيَأْمُرُ الرَّسولُ القائِدُ أنْ يُغَطّى أَعْلاهُ بِثَوْبِهِ ، وأَنْ يُلَفَّ أَسْفَلُهُ بِالكَلَإِ الرَّطْبِ ، ثُمَّ يَقولُ :

« إنَّ رَسولَ اللهِ يَشْهَدُ أَنَّكُمُ الشُّهَداءُ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيامَةِ ! »

ثُمَّ يَلْتَفِتُ إلى أَصْحابِهِ ، ويَقولُ لَهُمْ :

« .. زوروهُمْ وسَلِّموا عَلَيْهِمْ ، فَوَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لا يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ مُسْلِمٌ إلى يَوْمِ القِيامَةِ إلا رَدّوا عَلَيْهِ السَّلامَ ! »

* * *

حبرُ اليهودِ

عَبْدُ اللهِ بنُ سَلام

كانَ عالِمًا كَبيرًا مِنْ عُلَماءِ اليَهودِ في الْمَدينَةِ ، وحَبْرًا مِنْ أَحْبارِهِمْ ، يُفْتيهِمْ في أُمورِ دينِهِمْ ودُنْياهُمْ ، ويُعَلِّمُهُمُ التَّوْراةَ كِتابَهُمْ . وكانَ أَهْلُ الْمَدينَةِ جَميعًا مِنَ اليَهودِ وغَيْرِهِمْ يُجِلّونَهُ و يُعَظِّمونَهُ ، و يَعْرِفونَ لَهُ صَلاحَهُ وتَقْواهُ ، ويَلْجَأونَ إِلَيْهِ فيما يَعْرِضُ لَهُمْ مِنْ مُشْكِلاتٍ ، وكانَ يَسْعى بَيْنَ النّاسِ بِالصُّلْحِ والإِصْلاحِ .

كانَ « الحُصَيْنُ » ، وهَذا اسْمُهُ قَبْلَ إِسْلامِهِ ، يَعْرِفُ صِفَةَ الرَّسولِ ﷺ ويَجِدُهُ مَكْتوبًا في التَّوْراةِ ، ويَعْرِفُ زَمانَهُ ، ويَسْتَقْصي أَخْبارَهُ ، ويَمْتَلِئُ فَرَحًا حينَ يَتَبَيَّنُ مِنْ عَلاماتِهِ وأَماراتِهِ أَنَّهُ سَيَهْجُرُ بَلَدَهُ مَكَّةَ ، ويُهاجِرُ إِلى

يَثْرِبَ (الْمَدينَةِ) ، ويَدْعو اللهَ أَنْ يُمِدَّ في عُمْرِهِ حَتّى يَلْقاهُ ، ويَدْخُلَ في الدّينِ الَّذي يَبْعَثُهُ اللهُ بِهِ ، ويَنْصُرَهُ ويُؤازِرَهُ ما اسْتَطاعَ إِلى ذَلِكَ سَبيلاً !

ولَمّا جاءَتِ الأَخْبارُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ بُعِثَ في مَكَّةَ- أَخَذَ « الحُصَيْنُ » يَسْأَلُ عَنِ اسْمِهِ ونَسَبِهِ وصِفَتِهِ ، وعَنِ الدّينِ الَّذي جاءَ بِهِ ، حَتّى اسْتَوْثَقَ أَنَّهُ الَّذي بَشَّرَتْ بِهِ التَّوْراةُ ، فَأَسَرَّ ذَلِكَ في نَفْسِهِ ، وكَتَمَهُ في صَدْرِهِ ، ولَبِثَ يَتَرَقَّبُ هِجْرَتَهُ إِلى الْمَدينَةِ ؛ لِيَكونَ مِنْ أَوائِلِ الْمُؤْمِنينَ بِهِ .

ومَضَتِ الأَيّامُ والحُصَيْنُ يَتَتَبَّعُ أَنْباءَ الرَّسولِ والرِّسالَةِ ، ويَحُزُّ في نَفْسِهِ ما يَتَناهى إِلى سَمْعِهِ مِنْ إِيذاءِ الْمُشْرِكينَ لَهُ ، وفِتْنَتِهِمْ أَصْحابَهُ ، والتَّنْكيلِ بِضُعَفائِهِمْ والتَّضْييقِ عَلى أَقْوِيائِهِمْ ، حَتّى اضْطُرَّ كَثيرٌ مِنْهُمْ إِلى تَرْكِ مَوْطِنِهِ ، والهِجْرَةِ إِلى الحَبَشَةِ ، ولَكِنَّهُ كانَ يَرى في ذَلِكَ بَصيصًا مِنَ الأَمَلِ في أَنْ يَتَحَقَّقَ ما يَنْتَظِرُهُ بِشَوْقٍ ولَهْفَةٍ ، وأَنْ

يُعَجِّلَ ذَلِكَ بِهِجْرَةِ الرَّسولِ ﷺ إلى الْمَدينَةِ ، فَيُؤْمِنَ بِهِ وَيُصَدِّقَهُ وَيَنْصُرَهُ .

وذاتَ يَوْمٍ عَرَفَ « الحُصَيْنُ » أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ في طَريقِهِ إلى الْمَدينَةِ ، ورأى أَصْحابَهُ يَخْرُجونَ كُلَّ يومٍ لاسْتِقْبالِهِ ، والتَّعْبيرِ عَنْ فَرْحَتِهِمْ بِلِقائِهِ ، فَغالَبَ رَغْبَتَهُ في الذَّهابِ مَعَهُمْ ، وكَتَمَ شَوْقَهُ وحَنينَهُ بَيْنَ جَوانِحِهِ ، وآثَرَ الانْتِظارَ حَتّى يَأْتِيَ ، ومَكَثَ في بُسْتانِهِ يَتَرَقَّبُ - حَتّى جاءَ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ مُحمَّدًا ﷺ قَدْ بَلَغَ الْمَدينَةَ ، وأَنَّ أَصْحابَهُ قَدْ فَرِحوا بِهِ أَبْلَغَ الفَرَحِ . وكانَ « الحُصَيْنُ » في رَأْسِ نَخْلَةٍ لَهُ ، يَعْمَلُ في تَهْذيبِها ، وكانَتْ عَمَّتُهُ « خالِدَةُ بِنْتُ الحارِثِ » تَجْلِسُ تَحْتَها ، وإذا هُوَ يَهْتِفُ في نَشْوَةٍ : « اللهُ أَكْبَرُ . . اللهُ أَكْبَرُ ! »

فَقالَتْ لَهُ عَمَّتُهُ - وهِيَ جالِسَةٌ تَحْتَ النَّخْلَةِ - حينَ سَمِعَتْ تَكْبيرَهُ وتَهْليلَهُ : « خَيَّبَكَ اللهُ ! واللهِ لَوْ كُنْتَ سَمِعْتَ بِقُدومِ موسى بْنِ عِمْرانَ ما فَعَلْتَ فَوْقَ ذَلِكَ

شَيْئًا ! »

فَقالَ لَها الحُصَيْنُ : « يا عَمَّةُ ، هُوَ ، واللهِ ، أَخو موسى بْنِ عِمْرانَ ، وقَدْ بَعَثَهُ اللهُ مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الرُّسُلِ ، وجاءَ خاتَمًا لِلأَنْبياءِ والْمُرْسَلينَ . »

فَقالَتْ : « يا بْنَ أَخي ، أَهُوَ النَّبِيُّ الَّذي كُنْتُمْ تُخْبِرونَنا أَنَّهُ سَيُبْعَثُ في آخِرِ الزَّمانِ ؛ مُتَمِّمًا لِرِسالاتِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ ؟ »

فَقالَ الحُصَيْنُ : « نَعَمْ ، هُوَ يا عَمَّةُ . »

قالَتْ : « فَذاكَ إِذًا . »

وهَبَطَ « الحُصَيْنُ » مِنْ فَوْقِ نَخْلَتِهِ ، وتَرَكَ عَمَّتَهُ ، وانْطَلَقَ مُسْرِعًا إلى قُباءٍ حَيْثُ نَزَلَ الرَّسولُ ﷺ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ ، وسَمِعَهُ يَقولُ لأَصْحابِهِ : « أَفْشوا السَّلامَ ، وأَطْعِموا الطَّعامَ ، وصَلّوا بِاللَّيْلِ والنّاسُ نِيامٌ - تَدْخُلوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ . »

فَجَعَلَ يَتَفَرَّسُ في وَجْهِهِ ، ويَتَأَمَّلُ مَلامِحَهُ ، ويَمْلأُ

عَيْنَيْهِ مِنْ صورتِه ؛ فَأَيْقَنَ أَنَّ هَذا الوَجْهَ النَّبيلَ ، وهَذِهِ القَسَماتِ الوَضيئَةَ - لا يُمْكِنُ أَنْ تكونَ لِكاذِبٍ . فَدَنا مِنْهُ ، ورَفَعَ صَوْتَهُ بِقَوْلِهِ : « أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ ، وأَشْهَدُ أَنَّكَ عَبْدُهُ ورَسولُهُ . »

فالْتَفَتَ الرَّسولُ ﷺ إِلَيْهِ ، وقالَ لَهُ : « ما اسْمُكَ ؟ »

قالَ : « الْحُصَيْنُ بْنُ سَلّام . »

قالَ ﷺ : « بَلْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلّام . »

قالَ الْحُصَيْنُ : « نَعَمْ ، عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلّام . والَّذي بَعَثَكَ بالحَقِّ ما أُحِبُّ أَنْ تَكونَ لي كُنوزُ الدُّنْيا ، وأَعْدِلُ بِهِ اسْمًا آخَرَ . »

* * *

وانْصَرَفَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلّام » وقَدْ أَضاءَ الإِسْلامُ قَلْبَهُ ، وأَنارَ بَصيرَتَهُ ، وتَلأْلأَ نورُ الإِيمانِ فَوْقَ جَبينِهِ - انْصَرَفَ إِلى بَيْتِهِ راشِدًا ، فَدَعا زَوْجَتَهُ وأَوْلادَهُ وعَمَّتَهُ إِلى

الإِسْلام فَأَسْلَموا . . فَطَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَكْتُموا إِسْلامَهُمْ وإِسْلامَهُ حَتّى يُؤْذِنَهُمْ بِالإِفْصاحِ عَنْهُ ، فَأَجابوهُ إِلى رَغْبَتِهِ .

ثُمَّ رَجَعَ إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ وقالَ لَهُ :

« يا رَسولَ اللهِ ، إِنَّ اليَهودَ قَوْمٌ أَصْحابُ كَذِبٍ وبُهْتانٍ ، وإِنّي أُحِبُّ أَنْ تَدْعُوَ إِلَيْكَ رُؤَساءَهُمْ وسادَتَهُمْ ، وتَسْتُرَني في بَيْتٍ مِنْ بُيوتِكَ ، قَبْلَ أَنْ يَعْرِفوا خَبَرَ إِسْلامي ، ثُمَّ تَسْأَلَهُمْ عَنْ مَنْزِلَتي فيهِمْ ، ومَكانَتي بَيْنَهُمْ ، وتَدْعُوَهُمْ إِلى الإِسْلامِ ؛ لأَنَّهُمْ إِنْ عَرَفوا بِإِسْلامي عابوني وذَمّوني ، وانْتَقَصوا قَدْري ومَكانَتي . »

وأَخْفى الرَّسولُ ﷺ « عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلّام » في إِحْدى الحُجُراتِ ، ودَعا أَعْيانَ اليَهودِ وأَشْرافَهُمْ ، ثُمَّ قالَ :

« كَيْفَ الْحُصَيْنُ بْنُ سَلّامٍ فيكُمْ ؟ »

فَأَجابوهُ : « هُوَ سَيِّدُنا وابْنُ سَيِّدِنا ، عالِمُنا وابْنُ

عالِمنا ، وحَبْرُنا وابْنُ حَبْرنا ، لا نُصْدِرُ أَمْرًا دونَهُ ، ولا نَعْقِدُ عَقْدًا بِغَيْرِ مَشورَتِهِ ؛ فَإِنَّ رَأْيَهُ سَديدٌ ، وعِلْمَهُ واسِعٌ غَزيرٌ . »

فَقالَ لَهُمُ الرَّسولُ ﷺ : « أَ فَرَأَيْتُم إِنْ أَسْلَمَ ودَخَلَ فيما جِئتُ بِه ، أَ تُسْلِمونَ ؟»

قالوا: « حاشا للهِ أَن يُسْلِمَ الْحُصَيْنُ ، إِنَّ فِقْهَهُ وبَصيرَتَهُ يَمْنَعانِه !»

وراحوا يُجادِلونَ ويُعانِدونَ ، ويُمْعِنونَ في الجِدالِ والعِنادِ . فَلَمّا أَسْرَفوا على أَنْفُسِهِم - خَرَجَ عَلَيْهِمْ « عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلّام » مِنْ مَخْبَئِهِ ، وقالَ لَهُمْ : « يا مَعْشَرَ يهود ، اتَّقوا اللهَ في أَنْفُسِكُمْ ، واقْبَلوا ما جاءَكُمْ به الرَّسولُ ﷺ ، فَو اللهِ إِنَّ ما جاءَكُمْ بِهِ هُوَ الحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكُتُبِ ، وإِنَّكُمْ لَتَعْلَمونَ أَنَّهُ رَسولُ اللهِ ، تَجِدونَهُ مَكْتوبًا عِنْدَكُمْ في التَّوْراةِ بِاسْمِهِ وصِفَتِهِ . وإِنّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسولُ اللهِ ، وأُومِنُ بِهِ وأُصَدِّقُهُ فيما جاءَ بِهِ مِنْ

عِنْدِ رَبِّهِ ، فَهُوَ خاتَمُ الأَنْبِياءِ والمُرْسَلينَ . »

وإِذا بِهِمْ يَصيحونَ بِهِ ، ويَصْرُخونَ في وَجْهِهِ :

« لَقَدْ كَذَبْتَ وافْتَرَيْتَ . إِنَّكَ جاهِلُنا وابْنُ جاهِلِنا ، وشَرُّنا وابْنُ شَرِّنا ، وما عَلِمْنا مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ . »

وراحوا يَكيلونَ لَهُ السِّبابَ ، ويُلْصِقونَ بِهِ العُيوبَ ، ويُزَوِّرونَ عَلَيْهِ التُّهَمَ ، فَلَمْ يَتْرُكوا صِفَةً مُقْذِعَةً إِلا وَصَفوهُ بِها ، ولا عَمَلاً مُشينًا إِلا لَطَّخوهُ بِهِ .

فَنَظَرَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلّام » إلى الرَّسولِ الأَمينِ ، ثُمَّ إِلى اليَهودِ ، وقالَ : « أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ ، يا رَسولَ اللهِ ، إِنَّهُمْ قَوْمُ بُهْتانٍ وزورٍ ، وأَهْلُ كَذِبٍ وفُجورٍ ؟»

* * *

أَظْهَرَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلّام » إِسْلامَهُ وإِسْلامَ عَمَّتِهِ وأَهْلِ بَيْتِهِ ، وآوَوْا جَميعًا مِنَ الإِسْلامِ إِلى رُكْنٍ رَكينٍ . و أَقْبَلَ « عَبْدُ اللهِ » عَلى القُرْآنِ الكَريمِ يَتْلوهُ ، ويَتَفَقَّهُ في

تَشْريعاتِهِ ومَعانيهِ . ولَزِمَ الرَّسولَ ﷺ كما يَلْزَمُهُ ظِلُّهُ ، يَنْهَلُ مِنْ عِلْمِهِ ، ويَتَأَسَّى بِخُلُقِهِ ، ويَبْذُلُ في سَبيلِ اللهِ جَهْدَهُ وطاقَتَهُ ، لا يَدَّخِرُ في ذَلِكَ وُسْعًا ، ولا يَمَلُّ عَمَلاً ولا سَعْيًا .

وذاتَ لَيْلَةٍ رَأَى في مَنامِهِ رُؤْيا أَثْلَجَتْ صَدْرَهُ ، وأَدْخَلَتِ السُّرورَ عَلى قَلْبِهِ ، فَانْطَلَقَ مُسْرِعًا إلى رَسولِ اللهِ ﷺ يَقُصُّ عَلَيْهِ رُؤْياهُ !

قالَ : « يا رَسولَ اللهِ ، رَأَيْتُ فيما يَرى النّائِمُ أَنَّ رَجُلاً أَتاني ، وأَمَرَني بالقِيامِ مَعَهُ ، فَقُمْتُ ، فَأَخَذَ بِيَدي ، وإذا أَنا بِطَريقٍ عَنْ شِمالي ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَسْلُكَها ، فَقالَ لي : ‹‹ دَعْها فَإِنَّها لَيْسَتْ لَكَ . ›› فَنَظَرْتُ عَنْ يَميني فَإذا أَنا بِطَريقٍ واضِحَةِ المَعالِمِ ، فَقالَ لي : ‹‹ اسْلُكْها . ›› فَسَلَكْتُها حَتّى بَلَغْتُ رَوْضَةً غَنّاءَ ، واسِعَةً مُتَرامِيَةَ الأَطْرافِ ، فيها نَخْلٌ وفاكِهَةٌ ورُمّانٌ ، اسْتَراحَتْ لَها نَفْسي ، واطْمَأَنَّ لَها خاطِري ، ورَفْرَفَ طائِرُ الفَرَحِ في

صَدْري . وفي وَسَطِ هَذِهِ الرَّوْضَةِ الباهِرَةِ عَمودٌ مِنَ الحَديدِ ، أَصْلُهُ ثابِتٌ في الأَرْضِ وفَرْعُهُ في السَّماءِ ، وفي أَعْلاهُ حَلْقَةٌ مُضيئَةٌ مِنَ الذَّهَبِ ، يَكادُ سَنا ضَوْئِها يَخْطِفُ الأَبْصارَ . فَقالَ لي : ‹‹ اصْعَدْ عَلَيْهِ . ›› فَقُلْتُ لَهُ : ‹‹ لا أَسْتَطيعُ الصُّعودَ عَلَيْهِ . ››

« وإذا بِخادِمٍ قَوِيِّ البِنْيَةِ ، مَفْتولِ العَضَلِ ، يَأْتيني ، فَيَرْفَعُني حَتّى صِرْتُ في أَعْلى العَمودِ ، وأَمْسَكْتُ الحَلْقَةَ بِيَدَيَّ ، وتَشَبَّثْتُ بِها مَخافَةَ السُّقوطِ ، وبَقيتُ قابِضًا عَلَيْها ، مُتَعَلِّقًا بِها حَتّى الصَّباحِ . »

أَشْرَقَتْ أَساريرُ وَجْهِ الرَّسولِ ﷺ ، وبَرَقَ وَجْهُهُ ، كَما هِيَ عادَتُهُ عِنْدَ سُرورِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ إلى « عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلّامٍ » وقالَ لَهُ في حُنُوٍّ وحَدَبٍ : « أَمّا الطَّريقُ الَّتي عَلى شِمالِكَ فَهِيَ طَريقُ أَصْحابِ الشِّمالِ مِنْ أَهْلِ النّارِ . وأَمّا الطَّريقُ الَّتي عَلى يَمينِكَ فَهِيَ طَريقُ أَصْحابِ اليَمينِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ . وأَمّا الرَّوْضَةُ الَّتي دَخَلْتَها وفَرِحْتَ بِها فَهِيَ

الإسْلامُ . وأمّا العَمودُ الَّذي في وَسَطِها فهُوَ عَمودُ الدّينِ ، وهُوَ الصَّلاةُ . وأمّا الحَلْقَةُ الَّتي استَمْسَكْتَ بِها ، وصَبَرْتَ عَلَيْها – فَهِيَ العُرْوَةُ الوُثْقى . ولَنْ تَزالَ مُسْتَمْسِكًا بِها حَتّى تَلْقى اللهَ عَلَيْها . »

وظَلَّ « عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلّام » مُسْتَمْسِكًا بالعُرْوَةِ الوُثْقى ، مُعْتَصِمًا بِحَبْلِ اللهِ ، يُعَلِّمُ المُسْلِمينَ ، ويَشْرَحُ لَهُمْ تعاليمَ دينِهِمْ ، ويُفَقِّهُهُمْ في شُئونِهِ . يُلْقي حَديثَهُ في المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ بِصَوْتٍ مُمْتَلِئٍ إيمانًا ، يَخْرُجُ مِنْ قَلْبِهِ العامِرِ ، فَيَقَعُ في قُلوبِ السّامِعينَ ، وهُمْ يُرَدِّدونَ بُشْرى رَسولِ اللهِ ﷺ لَهُ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إلى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ؛ فَلْيَنْظُرْ إلى عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلّامٍ . »

فاتِحُ مِصْرَ
عَمْرُو بنُ العاص

شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإسْلام قُبَيْلَ فَتْحِ مَكَّةَ بِشُهورٍ مَعْدودَةٍ ، وكانَ ذَلِكَ في بَلَدٍ غَيْرِ عَرَبِيٍّ ، وعَلى يَدِ رَجُلٍ غَيْرِ عَرَبِيٍّ أَيْضًا . ولْنَسْتَمِعْ إلَيْهِ يَحْكي قِصَّةَ إسْلامِهِ ، فَيَقولُ : « كُنْتُ نافِرًا مِنَ الإسْلام ، ضائِقًا بِهِ ، نائِيًا عَنْهُ ، أَقولُ فيما بَيْني وبَيْنَ نَفْسي : ‹‹ لَوْ أَسْلَمَتْ قُرَيْشٌ كُلُّها ودَخَلَتْ في دينِ مُحَمَّدٍ – ما أَسْلَمْتُ ولا دَخَلْتُ . ›› وقَدْ أَعَنْتُ أَبي في إيذاءِ المُسْلِمينَ قَبْلَ الهِجْرَةِ ما اسْتَطَعْتُ إلى ذَلِكَ سَبيلاً . وحَضَرْتُ يَوْمَ بَدْرٍ في صُفوفِ قُرَيْشٍ ونَجَوْتُ مِنَ القَتْلِ ومِنَ الأَسْرِ . وحَضَرْتُ يَوْمَ أُحُدٍ ونِلْتُ مِنَ المُسْلِمينَ ما اسْتَطَعْتُ ، ونَجَوْتُ . وحَضَرْتُ يَوْمَ الخَنْدَقِ وعُدْتُ مَعَ العائِدينَ بِالخِزْيِ والخِذْلانِ .

« حينئذٍ أيقنتُ أنَّ أمرَ مُحمَّدٍ سيَظْهَرُ ظُهورًا قويًّا ، وأنَّ دينَهُ سَيَعْلو عُلوًّا كبيرًا ؛ فَذَهَبْتُ إلى الطّائِفِ وأَقَمْتُ في بُسْتانٍ لي هُناكَ ، وأَقْلَلْتُ مِنْ لِقاءِ النّاسِ ، أُقَلِّبُ أَمْري عَلى وُجوهِهِ ، وأُديرُ فِكْري في شَأْني ، ولَكِنِّي أَطْرُدُ عَنْ نَفْسي فِكْرَةَ الدُّخولِ في الإسْلامِ ، ولا أُتيحُ لَها الخُطورَ في بالي .

« وجاءَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ ، فَقُلْتُ : ‹‹ إنَّ مُحَمَّدًا وصَحْبَهُ سَيَدْخُلونَ مَكَّةَ في العامِ القادمِ ، ويُقيمونَ بِها أيّامًا ، ومَنْ يَدْري ؟ لَعَلَّ كَثيرًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَرْتَضونَ الإسْلامَ دينًا ، فَيَعْظُمَ أَمْرُ مُحَمَّدٍ في مَكَّةَ ، ويَكْبُرَ خَطَرُهُ . إنَّ مَكَّةَ لَمْ تَعُدْ تَصْلُحُ لي مُقامًا ، وكَذَلِكَ الطّائِفُ ، ولا شَيْءَ أَفْضَلُ مِنَ الخُروجِ عَنْ هَذِهِ الأَرْضِ كُلِّها .››

« عَزَمْتُ عَلى الخُروجِ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَعْرِضَ رَأْيي عَلى نَفَرٍ مِنْ قَوْمي ، كانوا يَعْتَزّونَ بِفِكْري ، و يَرَوْنَ سَدادَ

رَأْيي ، ويَسْتَجيبونَ لِمَقالَتي . فَجَمَعْتُهُمْ ونَثَرْتُ أَمامَهُمْ أَفْكاري وخَواطِري ، فَقالوا جَميعًا : ‹‹ نِعْمَ الرَّأْيُ رَأْيُكَ ! وإنّا لَمُرافِقونَ لَكَ ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ الأَرْضُ لَنا بِمُقامٍ . ولَكِنْ إلى أَيْنَ الخُروجُ ؟››

« قُلْتُ لَهُمْ : ‹‹ نَخْرُجُ إلى أَرْضِ الحَبَشَةِ فَنَكونُ عِنْدَ النَّجاشِيِّ ، فَإِنْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ على قَوْمِنا كُنّا بَعيدًا عَنْهُ ، لا يَبْلُغُ مِنّا مَبْلَغًا ، ولا يَسْتَطيعُ أَنْ يَنالَ مِنّا شَيْئًا . وإنْ ظَفِرَ قَوْمُنا بِهِ فَهُمْ يَعْرِفونَ فَضْلَنا ، ولا يُنْكِرونَ فِعالَنا .››

« اتَّفَقْنا عَلى الخُروجِ إلى أَرْضِ النَّجاشِيِّ ، وأَخَذْنا نَجْمَعُ الهَدايا الَّتي سَنُقَدِّمُها إلَيْهِ ، ونُطْرِفُهُ بِها ، وكانَ يُحِبُّ أَنْ تُهْدى إلَيْهِ مِنْ بِلادِنا الجُلودُ ، ويَعُدُّها هَدِيَّةً ذاتَ قيمَةٍ عالِيَةٍ - فَرُحْنا نَجْمَعُ الْجُلودَ ونَسْتَكْثِرُ مِنْها ، لِتَقَعَ مِنْ نَفْسِهِ مَوْقِعًا طَيِّبًا ، ولِنَحْظى عِنْدَهُ بِمَكانَةٍ رَفيعَةٍ ، وتَزْدادَ صَداقَتي لَهُ وُثوقًا .

« بَلَغْنا أَرْضَ النَّجاشِيِّ ، ولَبِثْنا نَنْتَظِرُ المُثولَ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وبَيْنا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحابِ مُحَمَّدٍ، هُوَ «عَمْرو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ» ، وقَدْ جاءَ رَسولاً إِلَيْهِ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ في شَأْنٍ مِنَ الشُّئونِ ، فَقُلْتُ لِرُفَقائي :

‹‹ هَذِهِ فُرْصَةٌ طَيِّبَةٌ سَنَحَتْ ! سَأَدْخُلُ إلى النَّجاشِيِّ وأُكَلِّمُهُ في أَنْ يُعْطِيَنا هَذا الرَّجُلَ لِنَقْتُلَهُ . فَإِنْ فَعَلْنا ذَلِكَ ؛ عَرَفَتْ لَنا قُرَيْشٌ فِعْلَتَنا ، ولَمْ تَجْحَدْ - إِنْ ظَفِرَتْ بِمُحَمَّدٍ - فَضْلَنا . ››

« فَأُعْجِبَ رُفَقائي بِقَوْلي ، وشَجَّعوني عَلَيْهِ .

« ولَمّا دَخَلْتُ عَلى النَّجاشِيِّ سَجَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَما كُنْتُ أَصْنَعُ ، ورَحَّبَ بي تَرْحيبًا بالِغًا ، وهَشَّ لِلِقائي ، وقالَ لي : ‹‹ مَرْحَبًا بِصَديقي .. ماذا أَهْدَيْتَ إِلَيْنا مِنْ بِلادِكَ ؟ ››

« فَأَجَبْتُهُ : ‹‹ هَذِهِ الجُلودَ الكَثيرَةَ الَّتي تُحِبُّها

وتَرْضاها . ››

« ثُمَّ قَرَّبْتُها إِلَيْهِ ، فَراقَتْ في نَظَرِهِ ، و أَعْطى مِنْها حاشِيَتَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ بِالباقي أَنْ يُسَجَّلَ ويُحْفَظَ .

« ظَنَنْتُ مِنْ تَرْحيبِهِ بي ، وفَرْحَتِهِ بِلِقائي - أَنّي أَصْبَحْتُ قَريبًا مِنْ تَحْقيقِ بُغْيَتي ، فَقُلْتُ لَهُ : ‹‹ أَيُّها المَلِكُ ، لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً خارِجًا مِنْ عِنْدِكَ مُنْذُ قَليلٍ ، هُوَ صاحِبُ رَجُلٍ مِنْ قَوْمِنا ، سَفَّهَ أَحْلامَنا ، وعابَ آلِهَتَنا ، وقَتَلَ أَشْرافَنا وسادَتَنا . فَإِنْ أَعْطَيْتَني إِيّاهُ لأَقْتُلَهُ ثَأْرًا وانْتِقامًا - كُنْتُ لَكَ شاكِرًا . ››

« فَغَضِبَ النَّجاشِيُّ غَضَبًا شَديدًا ، بانَ عَلى وَجْهِهِ ، وإِذا يَدُهُ تَرْتَفِعُ فَيَضْرِبُ بِها أَنْفي ضَرْبَةً قَوِيَّةً ، خِلْتُ أَنَّهُ كَسَرَهُ ، فَابْتَدَرَ مَنْخَراي بِالدَّمِ ، وجَعَلْتُ أَتَلَقّاهُ في ثِيابي فَأَصابَني ذُلٌّ شَديدٌ ، وَوَدِدْتُ مَعَهُ لَوْ أَنَّ الأَرْضَ انْشَقَّتْ فَابْتَلَعَتْني !

« وأَحبَبْتُ أَنْ أُداريَ خِزْيِي وذُلِّي ، وأَصونَ بَقِيَّةً مِن كَرامَتي ، وأَحتَفِظَ – ما استَطَعْتُ – بِصداقَتِهِ ؛ فَقُلْتُ مُتَوَدِّدًا مُعْتَذِرًا : ‹‹ لَوْ أَنّي أَدرَكْتُ أَنَّكَ تَكرَهُ ذلِكَ – أَيُّها الْمَلِكُ – ما سَأَلْتُكَ إِيّاهُ ، فَاغْفِرْ لي زَلَّتي . وأَقِلْني مِنْ عَثْرَتي ! ››

« فَقالَ الْمَلِكُ في نَبْرَةٍ عاتِبَةٍ مُسْتَنْكِرَةٍ : ‹‹ يا عَمْرو ، كَيْفَ تَطْلُبُ مِنّي أَنْ أَقْتُلَ رَسولاً جاءَني مِنْ عِنْدِ رَجُلٍ يَنْزِلُ عَلَيْهِ النّاموسُ (الوَحْيُ) ، الَّذي كانَ يَنْزِلُ عَلى موسى ، وسَيَنْصُرُهُ اللهُ عَلى مُعانِديهِ ومُعارِضيهِ كَما نَصَرَ موسى عَلى فِرْعَوْنَ وجُنودِهِ ؟››

« فَغَيَّرَ اللهُ قَلْبي عَمّا كُنْتُ عَلَيْهِ ، و قُلْتُ في نَفْسي : ‹‹ الْحَقُّ عَرَفَهُ العَرَبُ والعَجَمُ ، وتُخالِفُ فيهِ أَنْتَ وتُعانِدُهُ ! ››

« ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إِلى الْمَلِكِ ، وقُلْتُ لَهُ في نَبْرَةٍ هادِئَةٍ :

‹‹ أَتَشْهَدُ بِذلِكَ أَيُّها الْمَلِكُ ؟ ››

« قالَ : ‹‹ نَعَمْ ، أَشْهَدُ بِهِ عِنْدَ اللهِ ، يا عَمْرو ، فَأَطِعْني واسْمَعْ قَوْلي ، فَواللهِ إِنَّهُ لَعَلى الْحَقِّ ، ولَيُظْهِرَنَّهُ اللهُ ، ولَيَعْلُوَنَّ شَأْنُهُ . ››

« قُلْتُ : ‹‹ أَتُبايِعُني عَلى الإِسْلامِ أَيُّها الْمَلِكُ ؟ ››

« قالَ : ‹‹ نَعَمْ . ››

« وبَسَطَ يَدَهُ فَبايَعْتُهُ ، وأَصْبَحْتُ مُسْلِمًا . فَدَعا الْمَلِكُ بِطَسْتٍ ، وغَسَلَ عَنّي الدَّمَ ، وكَساني ثِيابًا جَديدَةً غَيْرَ ثِيابي الَّتي كانَتْ قَدِ امْتَلأَتْ دَمًا ، فَأَلْقَيْتُها ، وخَرَجْتُ !

« خَرَجْتُ عَلى أَصْحابي ، فَلَمّا رَأَوْا كُسْوَةَ النَّجاشِيِّ الَّتي أَلْبَسَها سُرّوا بِذلِكَ سُرورًا عَظيمًا ، وخُيِّلَ إِلَيْهِمْ أَنّي قَدْ نَجَحْتُ في مُهِمَّتي ، وحَقَّقْتُ طِلْبَتي ، فَقالوا :

‹‹ هَلْ أَدْرَكْتَ مِنْ صاحِبِكَ ما تُريدُ ؟ ››

« قُلْتُ لَهُمْ : ‹‹ لَيْسَ بَعْدُ . كَرِهْتُ أَنْ أُكَلِّمَهُ في أَوَّلِ

مَرَّةٍ ، وأَرْجَأْتُ ذَلِكَ إلى مَرَّةٍ أُخْرى ، أَعودُ فيها إِلَيْهِ . »

« قالوا : « الرَّأْيُ ما رَأَيْت . » و كَتَمْتُ عَنْهُمْ إِسْلامي !

« ثُمَّ فارَقْتُ جَماعَتي ، كَأَنَّني ذاهِبٌ لِقَضاءِ حاجَتي ، وعَمَدْتُ إلى شاطِئِ البَحْرِ حَيْثُ تَرْسو السُّفُنُ ، فَوَجَدْتُ سَفينَةً قَدْ فَرَغَ أَصْحابُها مِنْ شَحْنِها ، وهُمْ يُهَيِّئونَها لِلْحَرَكَةِ ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْخُذوني مَعَهُمْ ، ورَكِبْتُ السَّفينَةَ مُبْحِرًا إلى رَسولِ اللهِ ﷺ .

« وَصَلَتِ السَّفينَةُ إلى الشّاطِئِ الآخَرِ ، ورَسَتْ في مَكانٍ يُسَمّى « الشُّعَيْبَةَ » وهُوَ بَعيدٌ عَنِ الْمَدينَةِ ، فَنَزَلْتُ مِنْها . وكانَ مَعي بَعْضُ المالِ فَاشْتَرَيْتُ بَعيرًا ، يَحْمِلُني إلى الْمَدينَةِ . . وسِرْتُ . وبَيْنا أنا قَريبٌ مِنْ مَمَرِّ الظَّهْرانِ رَأَيْتُ رَجُلَيْنِ قَدْ سَبَقاني ، يَبْتَغِيانِ مَنْزِلاً يَسْتَريحانِ فيهِ ، أَحَدُهُما داخِلَ الْخَيْمَةِ ، والآخَرُ يُمْسِكُ

الرّاحِلَتَيْنِ خارِجَها . دَقَّقْتُ النَّظَرَ في الرَّجُلِ القابِضِ عَلى زِمامِ الرّاحِلَتَيْنِ فَإِذا هُوَ « خالِدُ بْنُ الوَليد » ، فَلَمّا دَنَوْتُ مِنْهُ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، وقُلْتُ لَهُ : « أَيْنَ تُريدُ يا خالِدُ ؟ »

« قالَ : « أُريدُ مُحَمَّدًا . لَقَدْ دَخَلَ النّاسُ في الإِسْلامِ ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ ذو طَعْمٍ (صاحِبُ عَقْلٍ وحَزْمٍ) لَمْ يَدْخُلْ فيهِ . »

« قُلْتُ : « وأَنا - واللهِ - أُريدُ مُحَمَّدًا ؛ فَقَدْ أَرَدْتُ الإِسْلامَ ، ورَغِبْتُ فيهِ . »

« فَخَرَجَ مِنَ الْخَيْمَةِ « عُثْمانُ بْنُ أَبي طَلْحَةَ » ورَحَّبَ بي ، وأَنِسَ بِوُجودي - فَقَدْ كانَ هُوَ ثالِثَنا في الطَّريقِ إلى الإِسْلامِ .

« وقَبْلَ أَنْ نَبْلُغَ الْمَدينَةَ ، نَزَلْنا مَنْزِلاً ، أَصْلَحْنا فيهِ شَأْنَنا ، وارْتَدَيْنا أَجْمَلَ ثِيابِنا ، ثُمَّ انْطَلَقْنا إلى الْمَدينَةِ .

ولا أَنْسى ما حَييتُ قَوْلَ رَجُلٍ تَناهى إلى أَسْماعِنا ، ونَحْنُ نَمرُّ بِبئرِ أَبي عُتْبَةَ ، جاءَنا صَوْتُهُ يَصيحُ : ‹‹ يا رَباحُ ، يا رَباحُ .›› فَتَفاءَلْنا بِهِ ، وأَشْرَقَتْ وُجوهُنا بِالبِشْرِ ، وفاضَتْ نُفوسُنا بِالسُّرورِ . ثُمَّ نَظَرَ الرَّجُلُ إِلَيْنا حينَ اقْتَرَبْنا مِنْهُ ، فَسَمِعْتُهُ يَقولُ: ‹‹ لَقَدْ أَعْطَتْ مَكَّةُ الْمَقادَةَ بَعْدَ هَذَيْنِ (لَمْ يَعُدْ عِنْدَها ما تُقاوِمُ بِهِ وتَصْمُدُ في وَجْهِ الْمُسْلِمينَ) .›› فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَعْنيني وخالدًا . ورَأَيْتُ الرَّجُلَ يَنْطَلِقُ مُسْرِعًا كَأَنَّهُ يَسْبِقُنا إلى الْمَسْجِدِ ؛ لِيُبَشِّرَ الرَّسولَ ﷺ بِقُدومِنا .

« دَخَلْنا الْمَسْجِدَ وقَدْ أُذِّنَ لِصَلاةِ العَصْرِ ، وإذا الرَّسولُ الأَمينُ مُتَهَلِّلٌ بِقُدومِنا ، فَرِحٌ بِإِسْلامِنا ، وإذا الْمُسْلِمونَ مِنْ حَوْلِهِ فَرِحونَ بِفَرَحِهِ ، مُتَهَلِّلونَ بِتَهَلُّلِهِ .

« جَلَسْنا بَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ فَبايَعَ خالِدٌ ، وبايَعَ عُثْمانُ ، وقُلْتُ لِلرَّسولِ ﷺ حينَ تَقَدَّمْتُ لِلْبَيْعَةِ : ‹‹ أُبايِعُكَ ،

يا رَسولَ اللهِ ، عَلى أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لي ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبي ؛ فَقَدْ أَفْرَطْتُ في حَقِّ نَفْسي !››

« تَبَسَّمَ رَسولُ اللهِ ﷺ وقالَ : ‹‹ يا عَمْرو ، إِنَّ الإِسْلامَ يَجُبُّ (يَقْطَعُ ويَمْحو) ما قَبْلَهُ ، وإِنَّ الهِجْرَةَ تَجُبُّ ما قَبْلَها .››

« فَوَاللهِ ما عَدَلَ بي رَسولُ اللهِ ﷺ وبِخالِدٍ أَحَدًا مِنَ الصَّحابَةِ في أَمْرِ حَرْبٍ مُنْذُ أَسْلَمْنا . ولَقَدْ كُنّا عِنْدَ أَبي بَكْرٍ بِهَذِهِ المَنْزِلَةِ ، وكانَ عُمَرُ عَلى خالِدٍ كالعاتِبِ . »

* * *

وكانَ أَوَّلَ لِواءٍ عَقَدَهُ الرَّسولُ ﷺ لِعَمْرِو بْنِ العاصِ – هُوَ لِواءُ سَرِيَّةِ « ذاتِ السَّلاسِلِ » . فَقَدْ جاءَتِ الأَنْباءُ إِلى الرَّسولِ القائِدِ أَنَّ قُضاعَةَ تَجْمَعُ جُموعَها لِلزَّحْفِ عَلى الْمَدينَةِ ، فَجَهَّزَ الرَّسولُ القائِدُ هَذِهِ السَّرِيَّةَ ، وجَعَلَ قِيادَتَها لِعَمْرٍو . ولَمّا أَصْبَحَ عَمْرٌو قَريبًا مِنَ القَوْمِ عَرَفَ

أَنَّ عَدَدَهُمْ كَبيرٌ ، وعَتادَهُمْ كَثيرٌ ، فَخَشِيَ عَلى جَيْشِهِ ، وبَعَثَ يَسْتَنْجِدُ الرَّسولَ ﷺ ، فَأَمَدَّهُ بِمائَتَيْنِ مِنَ الْمُجاهِدينَ ، فيهِمْ أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ ، وجَعَلَ أَميرَهُمْ أَبا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرّاحِ (١) ، وتَوَلَّى عَمْرٌو قِيادَةَ الْجَيْشِ كُلِّهِ ، واسْتَطاعَ أَنْ يَهْزِمَ الْعَدُوَّ ، ويُشَتِّتَ جُموعَهُ ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَتِهِ وقِلَّةِ الْمُسْلِمينَ ، ولَكِنَّها الْعَزيمَةُ الصّادِقَةُ ، والإيمانُ الْقَوِيُّ ، قَلَبَتِ الْمَوازينَ ، وجَعَلَتِ الْكَثْرَةَ قِلَّةً ، والْقِلَّةَ كَثْرَةً ، وبَثَّتِ الرُّعْبَ في نُفوسِ الْمُشْرِكينَ ، فانْقَلَبوا خاسِرينَ .

* * *

وأَرادَ الْمُسْلِمونَ أَنْ يَتْبَعوا فُلولَ الْجَيْشِ الْمُنْهَزِمِ ، فَأَبى عَمْرٌو عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، ومَنَعَهُمْ مِنْ أَنْ يَقْتَفوا أَثَرَهُمْ .

واشْتَدَّ الْبَرْدُ عَلى الْمُسْلِمينَ في اللَّيْلِ ، فَأَرادوا أَنْ يوقِدوا نارًا ، يَصْطَلونَ بِها ويَسْتَدْفِئونَ ، فَنَهاهُمْ عَمْرٌو

(١) انظر سيرته في كتابنا « أمين الأمة » من هذه السلسلة .

عَنْ ذَلِكَ .

ولَمّا رَجَعَ الْجَيْشُ إلى الْمَدينَةِ مُنْتَصِرًا غانِمًا – شَكى الْجُنودُ لِرَسولِ اللهِ صَنيعَ عَمْرٍو بِهِمْ ، فَسَأَلَهُ الرَّسولُ القائِدُ عَنْ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ ، فَقالَ عَمْرٌو مُفَسِّرًا صَنيعَهُ :

« يا رَسولَ اللهِ ، كَرِهْتُ أَنْ نَتْبَعَ العَدُوَّ فَيَكونَ لَهُ مَدَدٌ ، فَيَعْطِفَ عَلَيْنا ، ويُبَدِّلَ نَصْرَنا هَزيمَةً ، ونَقَعَ بَيْنَ قَتيلٍ وأَسيرٍ .

« وكَرِهْتُ أَنْ نوقِدَ نارًا ، فَيَرى العَدُوُّ قِلَّةَ عَدَدِنا ، فَيَطْمَعَ فينا ، ويَرْجِعَ إِلَيْنا ، وقَدْ تَبَدَّلَ جُبْنُهُ ورُعْبُهُ شَجاعَةً وثَباتًا . »

فَحَمِدَ الرَّسولُ ﷺ لَهُ حُسْنَ تَدْبيرِهِ ، ورَجاحَةَ عَقْلِهِ ، وبَراعَةَ قِيادَتِهِ !

* * *

وحينَ انْتَقَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ إلى بارِئِهِ كانَ عَمْرُو بْنُ

العاص واليًا عَلى صدَقاتِ عُمانَ وما حوْلَها ، يأْخُذُ الزَّكاةَ مِنْ أغْنيائِهِمْ ، ويرُدُّها على فُقَرائِهِمْ ، فكَتَبَ إلَيْهِ الخَليفَةُ أبو بكْرٍ رضي الله عنه يقولُ : « إنّي أنْجزْتُ مَواعيدَ رسولِ اللهِ ﷺ في توْلِيَتِكَ العمَلَ الَّذي بعَثَكَ إليْهِ ، وقدْ أحْبَبْتُ - أبا عبْدِ اللهِ - أنْ أُفرِّغَكَ لما هُوَ خيْرٌ لكَ في حَياتِكَ ومَعادِكَ ، إلا أنْ يكونَ الَّذي أنْتَ فيه أحَبَّ إلَيْكَ . »

وكانَ في هَذهِ الرِّسالَةِ تلْميحٌ مِنَ الْخليفَةِ إلى الدَّوْرِ الَّذي يُريدُ مِنْ عمْرٍو أنْ ينْهضَ بِأعْبائِهِ ، ويَتحمَّلَ أثْقالَهُ ، ويكونَ واحِدًا مِنْ قادَةِ الْجُنْدِ الَّذينَ عزَمَ الْخليفَةُ أنْ يُسَيِّرَهُمْ إلى الشّامِ والعِراقِ .

وكانَ جوابُ عمْرٍو إلى خليفَةِ رسولِ اللهِ :

« . . إنّي سَهْمٌ مِنْ سِهامِ اللهِ ، وأنْتَ - بعْدَ اللهِ - الجامِعُ لَها ، والرّامي بِها ، فَانظُرْ أشَدَّ النَّواحي خطَرًا وأبْعَدَها أثرًا ، وارْمِها بي - فَستَجِدُني حيْثُ يرْضى اللهُ

ورَسولُهُ . »

لَقَدْ بَدَّلَ الإسْلامُ عمْرو بْنَ العاصِ تَبْديلاً ، وأنْشأهُ خَلْقًا آخرَ ، فَما عادَ يَطْمَحُ إلى مالٍ يَجْمَعُهُ ، ولا إلى مَنْصِبٍ يَتبوَّأُهُ ، ولا إلى جاهٍ يَترَصَّدُهُ . . وإنَّما هِيَ عَقيدَةٌ شَرَحَ اللهُ بِها صَدْرَهُ ، وتَشرَّبَتْها روحُهُ ، وتَذوَّقَ حَلاوَتَها قَلْبُهُ ، واطْمَأَنَّ إلَيْها عَقْلُهُ ؛ فَمَضى يَبْذُلُ في سَبيلِها كُلَّ طاقاتِهِ ، ويُوَظِّفُ في خِدْمَتِها كُلَّ إمْكاناتِهِ - ولِذا كانَ جوابُهُ للخَليفَةِ أنْ يَنْظُرَ أيَّ الْمَواضِعِ أشَدَّها خَطَرًا ، وأصْعَبَها مراسًا ، فَيَرْميهِ بِهِ ، فَهُوَ سَهْمٌ مِنْ سِهامِ اللهِ ، يَرْجو أنْ يَسُدَّ الثُّغْرَةَ الَّتي يوكَلُ إلَيْهِ حِمايَتُها ، ويُعْهَدَ إلَيْهِ بالحِفاظِ عَلى أَمْنِها وسَلامَتِها .

واخْتارَهُ أبو بَكْرٍ رضي الله عنه قائِدًا لِواحِدٍ مِنَ الجُيوشِ الأَرْبَعَةِ ، الَّتي جَهَّزَها لِفَتْحِ بِلادِ الشّامِ ، وتَحْريرِها مِنْ بَطْشِ الرّومِ وسُلْطانِهِمْ . وكانَتْ وِجْهَتُهُ فِلَسْطينَ ، فَفَتَحَ

اللهُ عَلَيْهِ مِنْ أَرْضِها ما شاءَ أَنْ يَفْتَحَ ، ولَمْ يَثْبُتِ الرّومُ أَمامَهُ في مَوْقِعَةٍ ، حَتّى كانَ تَجْميعُهُمْ لِجَيْشٍ كَبيرٍ خَطيرٍ ، وإِعْدادُهُمْ عُدَّةً قَوِيَّةً بالِغَةً ، فَأَشارَ عَمْرٌو عَلى قادَةِ الجُيوشِ أَنْ يَتَجَمَّعوا في مَكانٍ واحِدٍ ، ويُقابِلوا هَذا الجَيْشَ اللَّجِبَ الكَثيرَ صَفًّا واحِدًا ، وكانَتْ مَوْقِعَةُ اليَرْموكِ الَّتي مُنِيَ فيها الرّومُ بِهَزيمَةٍ فادِحَةٍ ، لَمْ تَقُمْ لَهُمْ بَعْدَها قائِمَةٌ .

وما إِنِ انْكَسَرَتْ شَوْكَةُ الرّومِ في بِلادِ الشّامِ ، وارْتَفَعَتْ رايَةُ الإِسْلامِ في بِلادِهِ ، واسْتَوْلى الْمُسْلِمونَ عَلى مُعْظَمِ مُدُنِهِ وقِلاعِهِ – حَتّى وَمَضَتْ في ذِهْنِ عَمْرِو ابْنِ العاصِ فِكْرَةُ فَتْحِ مِصْرَ . وكانَتْ أُمورُ الخِلافَةِ قَدْ آلَتْ إِلى عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ ، فاغْتَنَمَ عَمْرٌو فُرْصَةَ زِيارَتِهِ لِبِلادِ الشّامِ ، وعَرَضَ عَلَيْهِ الفِكْرَةَ ، فَأَباها « عُمَرُ » إِباءً شَديدًا ، وامْتَنَعَ عَلى « عَمْرٍو » امْتِناعًا قَوِيًّا ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَتَوَرَّطَ الْمُسْلِمونَ في حَرْبٍ قَطيعَةٍ قاسِيَةٍ أُخْرى ، وهُمْ

لَمّا تَنْدَمِلْ جُروحُهُمْ مِنْ حُروبِ الشّامِ .

ولَكِنَّ عَمْرًا كانَ قَوِيَّ الحُجَّةِ ، ناصِعَ البَيانِ ، فَما زالَ بِأَميرِ الْمُؤْمِنينَ يُزَيِّنُ لَهُ الزَّحْفَ إِلى مِصْرَ ، ويُقْنِعُهُ بِضَرورَتِهِ ، ويُبَيِّنُ لَهُ أَنَّ حاكِمَ القُدْسِ الرّومانِيَّ فَرَّ إِلى مِصْرَ ، عِنْدَما أَيْقَنَ بِاتِّجاهِ أَهْلِها إِلى الصُّلْحِ مَعَ الْمُسْلِمينَ ، وتَسْليمِ الْمَدينَةِ لَهُمْ ، وأَنَّهُ هُناكَ يُعِدُّ العُدَّةَ ، ويُجَيِّشُ الجُيوشَ ، لِيُعاوِدَ الحَرْبَ ، ومِنَ الخَيْرِ أَنْ يُداهِمَهُ في مِصْرَ قَبْلَ أَنْ يَتَّسِعَ لَهُ الوَقْتُ لِحَشْدِ الجُنودِ ، وتَعْبِئَةِ الجُيوشِ ، فَلا يَجِدُ أَمامَهُ غَيْرَ البَحْرِ يَرْكَبُهُ فارًّا إِلى بِلادِهِ ، أَوْ يُغْرِقُ نَفْسَهُ فيهِ ، إِنْ لَمْ يُقْتَلْ بِسُيوفِ الْمُجاهِدينَ .

ومَضى « عَمْرٌو » يُهَوِّنُ الأَمْرَ عَلى أَميرِ الْمُؤْمِنينَ عُمَرَ ، ويَقْتَرِحُ عَلَيْهِ أَنْ يَسيرَ إِلى مِصْرَ في أَرْبَعَةِ آلافِ جُنْدِيٍّ فَحَسْبُ . وما زالَ يُلِحُّ ويُلْحِفُ في التَّفْسيرِ والتَّبْريرِ ،

حَتّى أذِنَ لَهُ أميرُ الْمُؤْمِنينَ في تَرَدُّدٍ ، وأنْبَأهُ أنَّهُ سَيَبْعَثُ إلَيْهِ بِرَأيِهِ القاطِعِ في هَذا الشَّأْنِ أثْناءَ قَصْدِهِ إلى مِصْرَ .

وحينَ رَجَعَ « عُمَرُ » رضي الله عنه إلى الْمَدينَةِ – اسْتَشارَ الصَّحابَةَ فيما عَرَضَهُ « عَمْرُو » ، فَرَأَوْا أنَّ في ذَلِكَ الزَّحْفِ إلى مِصْرَ تَهَوُّرًا واندِفاعًا ، وأشاروا عَلَيْهِ أنْ يَكْتُبَ إلَيْهِ بِالرُّجوعِ ؛ فَعاوَدَ « عُمَرَ » خَوْفُهُ وتَرَدُّدُهُ ، واسْتَبَدَّ بِهِ إشْفاقُهُ وخَشْيَتُهُ . وطَفِقَ يَتَدَبَّرُ الأمْرَ بِفِكْرٍ ثاقِبٍ ، وبَصيرَةٍ واعِيَةٍ : لَوْ كانَ عَمْرُو قَدْ دَخَلَ أرْضَ مِصْرَ ، وأمَرْتُهُ بِالعَوْدَةِ – فَإنَّ ذَلِكَ سَيَكونُ لَهُ الأثَرُ السَّيِّئُ في نُفوسِ الْمُسْلِمينَ ، وسَيُطْمِعُ فيهِمُ الأعْداءَ لِما يَظُنّونَهُ مِنْ جُبْنِهِمْ وهَلَعِهِمْ ؛ ومِنْ ثَمَّ تَوَسَّطَ « عُمَرُ » في الأمْرِ ، فَكَتَبَ إلى « عَمْرٍو » : « إذا بَلَغَتْكَ رِسالَتي هَذِهِ قَبْلَ أنْ تَدْخُلَ أرْضَ مِصْرَ – فارْجِعْ ، وإلا فَسِرْ عَلى بَرَكَةِ اللهِ . »

وكَأنَّما اسْتَشْعَرَ « عَمْرُو » ما تَنْطَوي عَلَيْهِ رِسالَةُ

« عُمَرَ » رضي الله عنه ، وشاءَ اللهُ لِمِصْرَ أنْ تَسْتَضيءَ بِنورِ الإسْلامِ ، وأنْ تَتَخَلَّصَ مِنْ قَبْضَةِ الرّومِ ، فاسْتَعانَ بِدَهائِهِ ، و احْتاطَ لأمْرِهِ ، وتَلَكَّأَ في اسْتِقْبالِ مَبْعوثِ أميرِ الْمُؤْمِنينَ ، وأبْطَأَ في تَسَلُّمِ الرِّسالَةِ مِنْهُ ، حَتّى دَخَلَ أرْضَ مِصْرَ ، وأصْبَحَ في « العَريشِ » .

حينَئِذٍ اسْتَدْعى الْمَبْعوثَ ، وتَسَلَّمَ مِنْهُ الرِّسالَةَ ، وقَرَأَ ما فيها ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إلى أصْحابِهِ وسَألَهُمْ : « أنَحْنُ في مِصْرَ الآنَ أمْ في فِلَسْطينَ ؟ »

فَأجابوا : « نَحْنُ في مِصْرَ . »

فَقالَ عَمْرٌو : « إذًا نَسيرُ عَلى بَرَكَةِ اللهِ كَما أمَرَنا أميرُ الْمُؤْمِنينَ . »

ويَبْدو أنَّ الْمِصْرِيّينَ كانوا يَضيقونَ بِالرّومِ ذَرْعًا ، ويَنْتَظِرونَ اليَوْمَ الَّذي يَسْتَطيعونَ فيهِ التَّخَلُّصَ مِنْهُمْ ؛ فَقَدْ ضَيَّقَ الرّومُ عَلَيْهِمُ الْخِناقَ ، وقَهَروا كِبْرِياءَهُمْ ، ولَمْ

يَحْفَظوا عَلَيْهِمْ كَرامَتَهُمْ ؛ وَلَمْ يَتْرُكوهُمْ أَحْرارًا في عَقيدَتِهِمْ وعِبادَتِهِمْ . وَقَدْ سَمِعوا عَنْ عَدْلِ الْمُسْلِمينَ وسَماحَتِهِمْ ، وأَنَّهُمْ لا يَفْتَحونَ البِلادَ اسْتِعْلاءً عَلى سُكّانِها ، ولا اسْتِعْبادًا لَهُمْ ، ولا يُكْرِهونَ أَحَدًا عَلى الدُّخولِ في دينِهِمْ ، بَلْ حُرِّيَّةُ الاعْتِقادِ مَكْفولَةٌ لِكُلِّ إنْسانٍ ؛ فَتاقَتْ نُفوسُهُمْ إلى ما سَمِعوهُ ، وأعانوا الْمُسْلِمينَ عَلى الفَتْحِ ، فَدَلّوهُمْ عَلى مَواطِنِ الضَّعْفِ في الْحُصونِ والأَسْوارِ ، وتَعَقَّبوا الفُلولَ الهارِبَةَ مِنْ جَيْشِ الرّومِ تَقْتيلاً وتَنْكيلاً ، كَما يَقولُ الْمَقْريزي .

وسارَ الْجَيْشُ الإسْلامِيُّ بِقِيادَةِ « عَمْرو » يَفْتَحُ بَلَدًا بَعْدَ بَلَدٍ ، ويَفُلُّ جُموعَ الرّومِ ، ويَهْزِمُها هَزيمَةً مُنْكَرَةً ، حَتّى بَلَغَ حِصْنَ بابِلْيونَ ، فَوَقَفَ أَمامَهُ « عَمْرٌو » بِجَيْشِهِ مُحاصِرًا سَبْعَةَ شُهورٍ كامِلَةً ، تَواتَرَتْ عَلَيْهِ فيها الأَمْدادُ مِنَ الْخَليفَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ ، وكانَ مِنْ بَيْنِها الزُّبَيْرُ بْنُ العَوّامِ ومَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُجاهِدينَ ، فَتَسَوَّرَ الزُّبَيْرُ

الْحِصْنَ [١] . فَلَمّا رَأى الرّومُ ذَلِكَ تَضاعَفَ الرُّعْبُ في قُلوبِهِمْ ، وآثَروا الصُّلْحَ مَعَ عَمْرِو بْنِ العاصِ ، عَلى أَنْ يُمْهِلَ جُنْدَ الرّومِ أَيّامًا ثَلاثَةً ؛ لِيَخْرُجوا مِنَ الحِصْنِ ، ويَنْزِلوا النَّهْرَ ، ويَحْمِلوا مَعَهُمْ مِنَ القوتِ ما يَكْفيهِمْ بِضْعَةَ أَيّامٍ . أَمّا ما يَحْويهِ الحِصْنُ مِنَ الآلاتِ الْحَرْبِيَّةِ والذَّخائِرِ والأَسْلِحَةِ - فَهُوَ غَنيمَةٌ لِلْمُسْلِمينَ .

ثُمَّ سارَ جَيْشُ الْمُسْلِمينَ في طَريقِهِ ، فَفَتَحَ الْمُدُنَ ، وفَرَّ الرّومُ مِنْ طَريقِهِ ، حَتّى بَلَغَ مَدينَةَ الإسْكَنْدَرِيَّةِ ، فَوَجَدَها مَتينَةَ التَّحْصينِ ، مَنيعَةَ الأَسْوارِ ، وقَدْ تَجَمَّعَ داخِلَها جَيْشٌ قَوِيٌّ كَثيرٌ مِنَ الرّومِ ، فَحاصَرَها حِصارًا دَقيقًا . ولَمّا رَأى الرّومُ أَنْ لا أَمَلَ لَهُمْ في الانْتِصارِ ، ولا طاقَةَ لَهُمْ بِالْمُقاوَمَةِ - آثَروا الصُّلْحَ لِيَرْكَبوا البَحْرَ ، ويَرْحَلوا إلى بِلادِهِمْ .

---

(١) انظر سيرته في كتابنا « حواري رسول الله » من هذه السلسلة .

وأَرْسَلَ « عَمْرو بْنُ العاص » رَجُلاً مِنَ الْمُجاهِدين هُوَ « مُعاويَة بْنُ حُدَيْج » إلى الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، يُبَشِّرُ أَميرَ الْمُؤْمِنينَ بالنصرِ الَّذي أَجْراهُ اللهُ على أَيْديهِمْ ، و وافَقَ وُصولُهُ وَقْتَ القَيْلولَةِ ، فَتَحرَّجَ الرَّجُلُ أَنْ يُزْعِجَ الْخَليفَةَ وَيُقْلِقَهُ ، فَقَدْ يَكونُ مُسْتَريحًا ، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ لِيَسْتَريحَ هُوَ مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ ، وَيُصْلِحَ مِنْ شَأْنِهِ ، حَتّى يَصْحُوَ الْخَليفَةُ ، وَيَخْرُجَ لِصَلاةِ العَصْرِ . ولكنَّ جارِيَةً لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شاهَدَتْهُ في الْمَسْجِدِ ، ولاحَظَتْ ما عَلَيْهِ مِنْ عَلاماتِ السَّفَرِ ؛ فَسَأَلَتْهُ عَنِ اسْمِهِ ، فَذَكَرَهُ لَها ، وزادَ عَلى ذلِكَ ، فَأَخْبَرَها أَنَّهُ قادِمٌ مِنْ مِصْرَ بِرِسالَةٍ إلى الْخَليفَةِ مِنْ قائِدِ الْجُنْدِ عَمْرِو بْنِ العاص .

أَسْرَعَتِ الجارِيَةُ تُنْبِئُ أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، فَبَعَثَ يَسْتَدْعيهِ ، وسَأَلَهُ عَنِ الأَنْباءِ ، فَقالَ مُعاوِيَةُ بْنُ حُدَيْج : « خَيْرًا ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، فَتَحَ اللهُ عَلَيْنا الإِسْكَنْدَرِيَّةَ ! »

فَقامَ « عُمَرُ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى الْمَسْجِدِ آخِذًا بِيَدِ « مُعاوِيَة » ،

وصَلَّيا صَلاةَ الشُّكْرِ للهِ – عَزَّ و جَلَّ – أَنْ يَسَّرَ لَهُمُ الأَمْرَ ، وَأَضاءَ بِالإِسْلامِ أَرْضَ مِصْرَ ، ودَخَلَ كَثيرٌ مِنْ أَخْوالِ « إبراهيمَ » ابْنِ رَسولِ اللهِ ﷺ في الإِسْلامِ . وتَذَكَّرَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ – عَنْ إِعْجابٍ لا عَنْ نِسْيانٍ – وَصِيَّةَ الرَّسولِ الأَمينِ بِأَهْلِ مِصْرَ ؛ فَأَوْصَى « مُعاوِيَة » أَنْ يُذَكِّرَ بِها عَمْرَو ابْنَ العاص ، ويوصيهِ بِأَهْلِ مِصْرَ خَيْرًا .

واعْتَذَرَ « مُعاوِيَةُ » لأَميرِ الْمُؤْمِنينَ بِأَنَّهُ ظَنَّ عِنْدَ وُصولِهِ أَنَّهُ نائِمٌ ، فَلَمْ يُرِدْ إِزْعاجَهُ ، فَقالَ لَهُ « عُمَرُ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

« بِئْسَ ما قُلْتَ ، يا مُعاوِيَةُ ، وبِئْسَ ما ظَنَنْتَ ! لَئِنْ نِمْتُ النَّهارَ لأُضَيِّعَنَّ الرَّعِيَّةَ ، ولَئِنْ نِمْتُ اللَّيْلَ لأُضَيِّعَنَّ نَفْسي ، فَكَيْفَ بِالنَّوْمِ مَعَ هذَيْنِ ؟ »

* * *

عادَ « مُعاوِيَةُ بْنُ حُدَيْج » إلى مِصْرَ ، وبَلَّغَ عَمْرَو بْنَ العاص رِسالَةَ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ ، وكانَ « عَمْرٌو » يَعْرِفُ مَعَ

ذَلِكَ لأَهْلِ مِصْرَ فَضْلَهُمْ في مَعونَتِهِ ، وإمْدادَهُمُ الجَيْشَ بِالطَّعامِ والأَخْبارِ ، فَذَكَرَ أَحَدُهُمْ أَمامَهُ أَنَّ أَحَدَ رُؤَساءِ الدِّينِ الْمَسيحِيِّ - وَاسْمُهُ « بِنْيامين » - فَرَّ بِدينِهِ حينَ عَلِمَ أَنَّ الرُّومَ لَهُ بِالْمِرْصادِ ؛ لأَنَّهُ رَفَضَ أَنْ يَتَّبِعَ مَذْهَبَهُمُ الَّذي فَرَضوهُ عَلى أَهْلِ مِصْرَ ، واخْتَفى بَعيدًا ، لا يَكادُ يَعْرِفُ مَكانَهُ غَيْرُ نَفَرٍ قَليلٍ ، يَتَّصِلونَ بِهِ خِفْيَةً . واقْتَرَحَ الرَّجُلُ عَلى « عَمْرو » أَنْ يُؤَمِّنَهُ عَلى حَياتِهِ ودينِهِ ، كَما أَمَّنَ أَهْلَ مِصْرَ جَميعًا ، فَسارَعَ « عَمْرُو » وأَذاعَ في النّاسِ :

« أَيْنَما كانَ بَطْرِيَرْكُ (رَئيسُ) القِبْطِ بِنْيامين ، نَعِدُهُ الحِمايَةَ والأَمانَ وعَهْدَ اللهِ ورَسولِهِ . فَلْيَأْتِ البَطْرِيَرْكُ إلى هُنا في أَمانٍ واطْمِئْنانٍ ؛ لِيَتَوَلَّى أَمْرَ دِيانَتِهِ ، ويَرْعَى أَهْلَ مِلَّتِهِ . »

وما كادَ البَطْرِيَرْكُ بِنْيامين يَسْمَعُ بِهَذا الأَمانِ - حَتّى خَرَجَ مِنْ مَخْبَئِهِ ، وجاءَ إلى « عَمْرو » مُهَنِّئًا بِالفَتْحِ ، فَأَحْسَنَ « عَمْرُو » اسْتِقْبالَهُ ، و وَلاهُ أَمْرَ دِيانَتِهِ . وقَدْ

فَرِحَ الْمَسيحِيّونَ بِذَلِكَ فَرَحًا شَديدًا ، وعَدّوا يَوْمَ رُجوعِ بِنْيامين إلَيْهِمْ عيدًا مِنْ أَعْيادِهِمْ .

* * *

ظَلَّ « عَمْرو بْنُ العاص » والِيًا عَلى مِصْرَ زَمَنَ خِلافَةِ عُمَرَ بْنِ الخَطّاب رضي الله عنه وصَدْرًا مِنْ خِلافَةِ عُثْمانَ بْنِ عَفّان رضي الله عنه وامْتَدَّ الفَتْحُ إلى بَرْقَةَ وطَرابُلُسَ ، واسْتَتَبَّ الأَمْرُ في مِصْرَ بَعْدَ ثَوْراتٍ قَليلَةٍ ضَعيفَةٍ ، ورَفْرَفَ عَلَيْها الازْدِهارُ ، وعَمَّها الرَّخاءُ . ثُمَّ عَزَلَ عُثْمانُ رضي الله عنه « عَمْرًا » عَنِ الوِلايَةِ ، ثُمَّ عادَ إلَيْها مَرَّةً ثانِيَةً في عَهْدِ مُعاوِيَةَ بْنِ أَبي سُفْيانَ . ولَبِثَ والِيًا عَلَيْها حَتّى وافاهُ الأَجَلُ الْمَحْتومُ ، وكانَ قَدْ أَرْبى عَلى التِّسْعينَ عامًا .

* * *

مُهاجِرَةُ الهِجْرَتَيْن

أَسْماءُ بِنْتُ عُمَيْس

واحدَةٌ مِنَ النِّساءِ اللاتي قالَ فيهِنَّ رَسولُ اللهِ ﷺ : « الأَخَواتُ المُؤْمِناتُ » ، وهُنَّ : « بَرَّةُ بنتُ الحارِثِ » ، التي تَزوَّجَها الرَّسولُ الكَريمُ ، بَعْدَ أَنْ أَدّى عُمْرَةَ القَضاءِ ، في السَّنَةِ الَّتي أَعْقَبَتْ صُلْحَ الحُدَيْبِيَةِ ، وسَمّاها الرَّسولُ الكَريمُ « مَيْمونَةَ » ؛ لأَنَّ زَواجَهُ بِها كانَ في العامِ المَيْمونِ المُبارَكِ ، الَّذي دَخَلَ فيهِ مَعَ أَصْحابِه مَكَّةَ مُحَلِّقينَ ومُقَصِّرينَ ، لا يَخافونَ ، فَأَدَّوُا العُمْرَةَ ، وأَصْبَحوا حَديثَ مَكَّةَ ، وشُغْلَها الشّاغِلَ . وكانَ ذَلِكَ إِيذانًا بِفَتْحِ مَكَّةَ ، ودُخولِها في دينِ اللهِ .

وثانِيَتُهُما - أُمُّ الفَضْلِ ، زَوْجَةُ العَبّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، عَمِّ الرَّسولِ ﷺ ، وهِيَ أَوَّلُ امْرَأَةٍ آمَنَتْ

بِالرَّسولِ ﷺ بَعْدَ السَّيِّدَةِ خَديجَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) . ويَذْكُرُ لَها تاريخُ المُسْلِمينَ أَنَّها ضَرَبَتْ عَدُوَّ اللهِ و رَسولِهِ « أَبا لَهَب » ، حينَ دَخَلَ بَيْتَ أَخيهِ العَبّاسِ في غِيابِهِ ، واحْتَمَلَ عَبْدَهُ « أَبا رافِع » ، وطَرَحَهُ عَلى الأَرْضِ ، وبَرَكَ عَلَيْهِ ، وأَشْبَعَهُ لَكْمًا وضَرْبًا ، وكَتَمَ أَنْفاسَهُ ، حَتّى كادَ يَقْضي عَلَيْهِ ؛ ذَلِكَ لأَنَّهُ أَسْلَمَ . فَقامَتْ أُمُّ الفَضْلِ - زَوْجَةُ العَبّاسِ - إِلى عَمودٍ كانَ قَريبًا مِنْها ، فَأَمْسَكَتْ بِهِ ، وضَرَبَتْ أَبا لَهَب فَشَجَّتْ رَأْسَهُ شَجَّةً مُنْكَرَةً ، وقالَتْ لَهُ في تَوْبيخٍ وتَأْنيبٍ : « اسْتَضْعَفْتَهُ فَضَرَبْتَهُ ؛ لأَنَّ سَيِّدَهُ العَبّاسَ غائِبٌ ! »

فَأَسْرَعَ مُوَلِّيًا ظَهْرَهُ ، يَجُرُّ ثِيابَهُ في خِزْيٍ وأَسًى ، وما عاشَ بَعْدَها غَيْرَ سَبْعِ لَيالٍ ، ثُمَّ هَلَكَ .

وثالِثَتُهُما - سَلْمى بِنْتُ عُمَيْسٍ ، زَوْجَةُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، أَسَدُ اللهِ ورَسولِهِ [1] .

---

(١) انْظر سيرَته في كتابنا « الشّهيد الطّائر » من هذه السِّلسلة .

ورابعتُهُما – أَسْماءُ بنْتُ عُمَيْسٍ ، زَوْجَةُ جعْفَرِ بْنِ أبي طالِبٍ ، الشَّهيدِ الطّائِرِ ، وذي الْجَناحَيْنِ ، اللَّذَيْنِ يَطيرُ بِهِما في الجَنَّةِ (١) .

وأُمُّهُنَّ جَميعًا « هِنْدُ بنْتُ عَوْفٍ » ، الَّتي كانَتْ تفْخَرُ وتُفاخِرُ بأَصْهارِها مِنْ بَني عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وفي ذُرْوَتِهِمْ رَسولُ اللهِ ﷺ .

أَسْلَمَتْ « أَسْماءُ » مَعَ زَوْجِها « جَعْفَرِ بْنِ أَبي طالِبٍ » قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الرَّسولُ ﷺ دارَ الأَرْقَمِ ، فَكانَتْ مِنَ السّابِقينَ إلى الإِسْلامِ . ولَبِثَتْ مَعَ زَوْجِها في مَكَّةَ ، وهُوَ يُعاني تَضْييقَ قُرَيْشٍ عَلَيْهِ الْخِناقَ ، فَلا يَسْتَطيعُ أَنْ يُؤَدِّيَ شَعائِرَ دينِهِ في حُرِّيَّةٍ واطْمِئْنانٍ ، حَتّى أَذِنَ الرَّسولُ الكَريمُ لأَصْحابِهِ في الهِجْرَةِ إلى الْحَبَشَةِ ، فَهاجَرَتْ مَعَ زَوْجِها « جَعْفَرٍ » ، وأَقامَتْ مَعَهُ في تِلْكَ الدِّيارِ الغَريبَةِ البَعيدَةِ ، وتَحَمَّلَتْ مَرارَةَ البُعْدِ عَنِ الوَطَنِ والأَهْلِ ،

(١) انْظر سيرته في كتابنا « الشَّهيد الطائر » من هذه السِّلسلة .

وذاقَتْ قَساوَةَ الغُرْبَةِ ، ولَكِنَّها احْتَمَلَتْ ذَلِكَ كُلَّهُ صابِرَةً ، تَحْتَسِبُهُ في سَبيلِ اللهِ ورَسولِهِ .

وحينما بَلَغَتِ المُهاجِرينَ شائِعَةُ أَنَّ مَكَّةَ قَدْ فَشا فيها الإِسْلامُ ، وعَزَّ المُسْلِمونَ ، وخَفَّ الأَذى عَنْهُمْ والاضْطِهادُ ، وعادَ بَعْضُ الْمُهاجِرينَ إلى مَكَّةَ لِيَنْعَموا بالقُرْبِ مِنَ الرَّسولِ الأَمينِ – حينَذاكَ لَمْ يَعُدْ « جَعْفَرٌ » ولَمْ تَعُدْ « أَسْماءُ » ، بَلْ ظَلّا مَعَ بَعْضِ الْمُهاجِرينَ في مَكانِهِمْ لَمْ يَبْرَحوهُ ، ولَبِثوا يَعْبُدونَ رَبَّهُمْ ، ويُقيمونَ شَعائِرَ دينِهِمْ ، ويَتَحَمَّلونَ لَذْعَ الشَّوْقِ ، وتَباريحَ الحَنينِ إلى الرَّسولِ الحَبيبِ ، حَتّى كانَتِ الهِجْرَةُ إلى الْمَدينَةِ ، واسْتِقْرارُ الرَّسولِ ﷺ وصَحْبِهِ فيها ، فَعادَتِ البَقِيَّةُ الباقِيَةُ مِنَ الْمُهاجِرينَ والْمُهاجِراتِ مِنَ الْحَبَشَةِ إلى الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ . وكانَ ذَلِكَ يَوْمَ أَنْ فَتَحَ اللهُ عَلى رَسولِهِ والْمُسْلِمينَ حُصونَ خَيْبَرَ .

وكانَتْ « أَسْماءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ » مِنْ بَيْنِ العائِدينَ مَعَ

زَوْجها « جعفرِ بنْ أبي طالِبٍ » ، و ذَهَبَتْ إلى السَّيِّدَة « حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ » زَوْجَةِ الرَّسولِ الكَريمِ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) تَزورُها . وبَيْنَما هِيَ جالِسَةٌ عِنْدَها جاءَ « عُمَرُ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فسَألَ : « مَنْ هَذِهِ ؟ »

فَأَجابَتْهُ ابْنَتُهُ : « أَسْماءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ زَوْجَةُ جَعْفَرِ بْنِ أَبي طالِبٍ . »

فقالَ « عُمَرُ » : « آلْحَبَشِيَّةُ ؟ »

فَأَجابَتْهُ « أَسْماءُ » : « نعَمْ . »

فقالَ لَها عُمَرُ : « سَبَقْناكُمْ بِالهِجْرَةِ ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسولِ اللهِ مِنْكُمْ . »

فَغَضِبَتْ « أَسْماءُ » غَضَبًا شَديدًا ، حَتّى احْمَرَّ وَجْهُها مِنْ شِدَّةِ الغَضَبِ ، وارْتَجَفَتْ شَفَتاها ، وتَزاحَمَتِ الكَلِماتُ عَلى لِسانِها ، وهِيَ تَقولُ لِعُمَرَ :

« كَلّا ، و اللهِ ، يا عُمَرُ . كُنْتُم مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ يُطْعِمُ

جائِعَكُمْ ، ويَكْسو عارِيَكُمْ ، ويَعِظُ جاهِلَكُمْ ، ويُنَبِّهُ غافِلَكُمْ ، وكُنّا في دارٍ بَعيدَةٍ غَريبَةٍ ، في الْحَبَشَةِ ، نُقاسي ونُعاني . . وذَلِكَ في سَبيلِ اللهِ ورَسولِهِ .

« واللهِ ، لا أَطْعَمُ طَعامًا ، ولا أَشْرَبُ شَرابًا حَتّى أَذْكُرَ ما قُلْتَهُ لِرَسولِ اللهِ ﷺ ، وأَسْأَلَهُ . »

وأَسْرَعَتْ « أَسْماءُ » تَلْتَمِسُ رَسولَ اللهِ ﷺ حَتّى وَجَدَتْهُ ، فَقالَتْ لَهُ : « يا رَسولَ اللهِ ، إنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ قالَ كَذا وكَذا . »

فَهَدَّأَ الرَّسولُ الكَريمُ مِنْ رَوْعِها ، وأَعادَ الأَمْنَ والطُّمَأْنينَةَ إلى صَدْرِها ، حينَ قالَ لَها : « لَيْسَ هُمْ بِأَحَقَّ بي مِنْكُمْ . لِعُمَرَ وأَصْحابِهِ هِجْرَةٌ واحِدَةٌ ، ولَكُمْ – أَهْلَ السَّفينَةِ – هِجْرَتانِ : هاجَرْتُمْ إلى النَّجاشِيِّ في الْحَبَشَةِ ، وهاجَرْتُمْ إلَيَّ في الْمَدينَةِ . »

فَقَرَّتْ « أَسْماءُ » عَيْنًا ، وطابَتْ نَفْسًا ، وهَدَأَتْ بالاً ، واسْتَراحَتْ خاطِرًا . ولَم يَكُنْ ذَلِكَ لَها وَحْدَها ، فَقَدْ

عمَّتِ الفرحَةُ أَهلَ السَّفينَةِ جميعًا ، وكانوا يأتونها أرسالاً ، يسألونها عَنْ هَذا الحديثِ ، وليس في الدُّنيا شيءٌ هُمْ أفرحُ بهِ وأعْظَمُ في نفوسِهِمْ منْهُ !

* * *

عاشَتْ « أسماءُ » بَعْدَ أن استُشْهِدَ زَوْجُها « جَعْفَرٌ » في غزْوةِ « مُؤْتَة » ، وبشَّرها رسولُ اللهِ ﷺ - كما بَشَّر سائرَ المُسْلمين - بأنَّ اللهَ أبْدلَه بيديْه جناحيْن يطيرُ بهما في الجنَّة ، ترْعى بنيها : عَبْدَ اللهِ ، و عوْفًا ، و مُحمَّدًا ، حتّى شاءَ اللهُ لَها أنْ تتزوَّجَ مِنْ « أبي بكْر » رضي الله عنه ، وأنْجبتْ منْهُ « مُحمَّدًا » ، ثمَّ تزوَّجتْ بعْدَهُ منْ « عليِّ بْن أبي طالب » ، وفي كنَفِه تربّى « مُحمَّدُ بْنُ أبي بكْر » ، وكانَ زواجُ « عليٍّ » مِنها تكريمًا لأبي بكْر ، ورعايةً لحقِّهِ ، وحمايةً لزوْجتِه ، ووفاءً بحقِّ ابْنه .

ولم تكُنْ « أسْماءُ » بالمَرْأةِ الضَّعيفةِ ، الَّتي تهزمُها الأحْداثُ ، وتوهنُ قُوَّتَها المَصائبُ ، بل كانتِ المرْأةَ

القَويَّةَ القادرَةَ ، الَّتي تستطيعُ مُواجهَةَ النَّوازلِ ، والتَّغلُّبَ على المَصاعبِ . فقدْ ثابتْ إلى رُشْدها بعْدَ أنْ فقدتْ زوْجَها « جعفرَ بْنَ أبي طالبٍ » ، ولَمْ يَسْتغرقْها الحُزْنُ ، ولَمْ يُفْسِدْ أمْرَها الجَزَعُ ، بَلِ اسْتعاذتْ بربِّها ، ولاذتْ بصبْرِها ، فأعانَها اللهُ على أمرِها .

وحين بلغَها مصْرعُ ابنها « مُحمَّد » في مِصر ؛ قامتْ إلى مسْجدِها في بيْتِها ، فصلَّتْ صلاتَها ، وتضرَّعتْ إلى خالِقِها ، وكظمتْ غيْظَها ، واستعانتْ بِصبْرِها .

وظلَّتْ « أسماءُ » تصبرُ وتُصابرُ حتّى انْتقلتْ إلى بارئها بعْدَ وفاةِ زوْجِها الأخيرِ « عليِّ بْنِ أبي طالبٍ » ، وصعدتْ روحُ مُهاجرةِ الهجْرتيْنِ إلى ربِّها راضيةً مرْضيَّةً !

* * *

وَفْدُ بَني عامِرٍ

عامِرُ بنُ الطُّفَيْلِ و أَرْبَدُ بن قَيْسٍ

فَتحَ اللهُ على رَسولِه ﷺ مَكَّةَ ، وبَسَطَ الإسْلامُ علَيْها رُواقَهُ ، ورَجعَ الرَّسولُ الأمينُ إلى الْمَدينَةِ الْمُنوَّرَةِ ، وفَرِحَ الأنْصارُ فَرْحَةً غامِرَةً برجوعِهِ مَعَهُمْ ، فَقَدْ ظَنّوا أنَّهُ وقَدْ عادَ إلى وَطَنِه ، والْتَقى أهْلَهُ ، سَيَطيبُ لَهُ الْمُقامُ بَيْنَهُمْ ، ولَكِنَّهُ آثَرَهُمْ على مَنْ سِواهُمْ ، ورَجَعوا بِه في رِحالِهِمْ ، كَما قالَ لَهُمْ .

ولَمْ يَكَدِ الرَّسولُ ﷺ يَسْتَقِرُّ في الْمَدينَةِ بَعْدَ أن فَرَغَ مِنْ تَبوك - حَتّى بَدَأَتْ وُفودُ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ تَضْرِبُ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ . . كانَ ذَلِكَ في العامِ التّاسِعِ مِنَ الهِجْرَةِ ، حَتّى سُمِّيَ هَذا العامُ « عامَ الوُفودِ » ؛ ذَلِكَ أنَّ

القَبائِلَ العَرَبِيَّةَ كانَتْ تُنْزِلُ قُرَيْشًا مَنْزِلَةً سامِيَةً ، وتَعْقِدُ لَها القِيادَةَ والإمامَةَ ؛ لِمَكانَتِها مِنَ البَيْتِ الحَرامِ ، وقِيامِها عَلى خِدْمَتِه وصِيانَتِهِ ، ورِعايَتِها لأمْرِ الْحَجيجِ ونُهوضِها بِشُئونِهِمْ . فَلَمّا أَسْلَمَتْ قُرَيْشٌ بَعْدَ أنْ ناصَبَتِ الرَّسولَ ﷺ وصَحْبَهُ العِداءَ ، وخاضَتْ ضِدَّهُ حُروبًا كَثيرَةً - حينَئِذٍ أدْرَكَتِ القَبائِلُ الأُخْرى أنَّهُ لا طاقَةَ لَها بِحَرْبِ الْمُسْلِمينَ ، ولا قِبَلَ لَها بِعَداوَتِهِمْ ، فَجاءَتْ وُفودُها تَدْخُلُ في دينِ اللهِ أفواجًا .

وكانَ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الوُفودِ الَّتي سَعَتْ إلى الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَفْدُ بَني عامِرٍ ، وعَلى رَأْسِهِ هَذانِ الرَّجُلانِ اللَّذانِ نَسوقُ إلَيْكَ حَديثَهُما ، كَما حَفِظَهُ لَنا التّاريخُ وَرَواهُ .

كانَ هَذانِ الرَّجُلانِ مِنْ شَياطينِ العَرَبِ ، الَّذينَ يَتَّصِفونَ بِالحيلَةِ والْمَكْرِ ، ويَحْسُبُ النّاسُ لِدَهائِهِمْ حِسابًا كَبيرًا ، ويُقيمونَ لِحيلَتِهِمْ ومَكْرِهِمْ وَزْنًا . وكانَ «

عامِرٌ » أَوْسَعهُما حيلَةً ، وأَكْثَرهُما دهاءً ، وأَشَدَّهُما مَكْرًا .

قالَ لَهُ قَوْمُهُ : « يا عامِرُ ، إنَّ النّاسَ قَدْ أَسلَموا ، ودَخلُوا في دينِ اللهِ ، وبايَعوا رَسولَهُ – فَأَسْلِمْ تَغْنَمْ خَيْرَي الدُّنْيا والآخِرَةِ . »

ولَكِنَّ الغُرورَ قَدْ رَكِبَهُ ، والعداوَةَ قَدِ اسْتَبَدَّتْ بِهِ ، والحِقْدَ أَعمى بَصرَهُ وبَصيرَتَهُ ، فَقالَ لَهُم : « لَقَدْ كُنْتُ أَقْسَمْتُ أَنْ لا أَموتَ قَبْلَ أَنْ يَتْبَعَني العَرَبُ جَميعًا ، ويَمْضوا خَلْفي . أَ فَأَنا أَتْبَعُ هَذا الفَتى القُرَشِيَّ ، وأَسيرُ خَلْفَهُ ؟ »

ومَضى مَعَ الوَفْدِ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، يُظْهِرُ المَوَدَّةَ والأَمانَةَ ، ويُبْطِنُ البُغْضَ والخِيانَةَ ، ويَتَمَنّى أَنْ يَنالَ مِنَ الرَّسولِ الكَريمِ مَنالاً . وكانَ صاحِبُهُ « أَرْبَدُ » يُشارِكُهُ الرَّأْيَ ، و يُشاطِرُهُ الرَّغْبَةَ ، و يَتَمَنّى أُمْنِيَّتَهُ ؛ فالْتَفَتَ إلَيْهِ « عامِرٌ » وهُما يَسيرانِ في الطَّريقِ ، وقالَ لَهُ :

« اِسْمَعْ ، يا أَرْبَدُ . إذا قَدِمْنا عَلى الرَّجُلِ (يَقْصِدُ الرَّسولَ الكَريمَ) فَإِنّي سَأَشْغَلُهُ بالكَلام ، وأَجْعَلُهُ دائِمَ الالْتِفاتِ نَحْوي ، فإذا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَعَلَيْكَ أَنْ تَغْتَنِمَ هَذِهِ الفُرْصَةَ ، وتَضْرِبَهُ بِسَيْفِكَ ضَرْبَةً واحِدَةً تَقْضي عَلَيْهِ . »

دَخَلَ الوَفْدُ عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ فَابْتَدَأَ « عامِرٌ » الحَديثَ بِقَوْلِهِ : « يا مُحَمَّدُ ، أُريدُكَ أَنْ تَخْلُوَ إلَيَّ ، فَعِنْدي إلَيْكَ حَديثٌ . »

فَأَجابَهُ الرَّسولُ ﷺ : « لا ، حَتّى تُؤْمِنَ بِاللهِ ورَسولِه . »

فَأَلَحَّ « عامِرٌ » في طَلَبِهِ ، فَأَجابَهُ الرَّسولُ الأَمينُ في حَسْمٍ : « لا ، واللهِ ، حَتّى تُؤْمِنَ بِاللهِ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وبِمُحَمَّدٍ عَبْدِه ورَسولِه . »

وجَعَلَ « عامِرٌ » يُجادِلُ الرَّسولَ الكَريمَ ، ويُكَلِّمُهُ ويُلِحُّ عَلَيْهِ ويُلْحِفُ ، والرَّسولُ الأَمينُ مُلْتَفِتٌ إلَيْهِ ، ولَكِنَّ « أَرْبَدَ » صاحِبَهُ لا يَفْعَلُ شَيْئًا ! فَلَمّا رَأى « عامِرٌ » أَنَّ

صاحِبُهُ لا يَصْنَعُ شيْئًا ، ولا يَنْتَهِزُ الفُرْصَةَ الّتي سَنَحَتْ ، قالَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ : « واللهِ ، يا مُحَمَّدُ ، لأَمْلأَنَّها عَلَيْكَ فُرْسانًا ، ورِجالاً ، ولأُغيرَنَّ على مَدينَتِكَ ، ولأُخَرِّبَنَّها تَخْريبًا تَتَحَدَّثُ بِهِ العَرَبُ جَميعُها . »

وخَرَجَ « عامِرٌ » وصاحِبُهُ « أَرْبَدُ » وقَدْ كَشَفا عَنِ الحِقْدِ الَّذي يَأْكُلُ قَلْبَيْهِما ، وأَفْصَحا عَنِ العَداوَةِ الَّتي جَثَمَتْ عَلى صَدْرَيْهِما ، فَدَعا رَسولُ اللهِ ﷺ قائِلاً وهُوَ يَضْرَعُ إِلى رَبِّهِ الَّذي تَكَفَّلَ بِحِفْظِهِ وعِصْمَتِهِ مِنَ النّاسِ : « اللَّهُمَّ اكْفِني عامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ . »

* * *

قالَ « عامِرٌ » لِصاحِبِهِ بَعْدَ أَنْ خَرَجا مِنْ مَجْلِسِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، في نَبْرَةٍ عاتِيَةٍ غاضِبَةٍ : « وَيْلَكَ يا أَرْبَدُ ! ما لَكَ لَمْ تَصْنَعْ ما اتَّفَقْنا عَلَيْهِ ؟ واللهِ ، ما كانَ أَحَدٌ في الأَرْضِ أَخْشاهُ على نَفْسي كَما أَخْشاكَ . واللهِ ، لَنْ أَخافَكَ بَعْدَ اليَوْمِ أَبَدًا ؛ فَقَدْ عَلِمْتُ جُبْنَكَ ونُكوصَكَ ! »

قالَ « أَرْبَدُ » : « لا تَعْجَلْ ، يا عامِرُ ، في الحُكْمِ . واللهِ ، كُلَّما هَمَمْتُ أَنْ أَفْعَلَ الأَمْرَ الَّذي اتَّفَقْنا عَلَيْهِ – رَأَيْتُكَ ماثِلاً بَيْني وبَيْنَ الرَّجُلِ ، حَتّى إِنّي لا أَرى غَيْرَكَ . . أَ فَكُنْتَ تُريدُ أَنْ أَضْرِبَكَ بِالسَّيْفِ وأَقْضِيَ عَلَيْكَ ؟ »

وانْطَلَقَ الرَّجُلانِ في طَريقِهِما صامِتَيْنِ ، وقَدْ باءَتْ خُطَّتُهُما بِالفَشَلِ والخُسْرانِ . ولَعَلَّ كُلًّا مِنْهُما كانَ يَكُدُّ ذِهْنَهُ ، ويُجْهِدُ فِكْرَهُ ، في البَحْثِ عَنْ خُطَّةٍ أُخْرى يُحَقِّقانِ بِها أَرَبَهُما . ولَعَلَّ الشَّيْطانَ كانَ يُزَيِّنُ لَهُما رَغْبَتَهُما ، ويُقَرِّبُ لَهُما أُمْنِيَّتَهُما . ولَعَلَّهُما أَسْرَفا عَلى نَفْسَيْهِما في التَّفْكيرِ والتَّدْبيرِ ، ولَمْ يُدْرِكا أَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وأَنَّهُ عاصِمٌ رَسولَهُ لِيُبَلِّغَ دَعْوَتَهُ ، ويُحَقِّقَ رِسالَتَهُ .

فَبَيْنَما هُما في بَعْضِ الطَّريقِ إِلى بِلادِهِما ؛ إِذْ شَعَرَ « عامِرٌ » بِوَجَعٍ في عُنُقِهِ ، فَظَنَّهُ وَجَعًا عارِضًا

يَسْتَطيعُ احْتِمالَهُ ، ويَبْرَأُ مِنْهُ بِما أَلِفَ العَرَبُ مِنْ دَواءٍ .
ومَضى مَعَ صاحِبِهِ في طَريقِهِما إلى أَرْضِهِما ، ولَكِنَّ الوَجَعَ يَشْتَدُّ ، والأَلَمَ يَتَفاقَمُ ، وإذا « عامِرٌ » تَخورُ قُواهُ ، وتَضْعُفُ عَنْ حَمْلِهِ قَدَماهُ ، فَلا يَسْتَطيعُ السَّيْرَ ، وإذا صَحْبُهُ مُضْطَرّونَ أَنْ يَميلوا بِهِ عِنْدَ امْرَأَةٍ مِنْ بَني سَلولٍ لِيُمَرِّضوهُ . وعِنْدَما أَيْقَنَ « عامِرٌ » أَنَّهُ المَوْتُ ؛ كانَ يَصيحُ في حَسْرَةٍ وأَسًى : « أَ غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البَعيرِ ، ومَوْتٌ عِنْدَ امْرَأَةٍ مِنْ بَني سَلولٍ ؟» يَحزَنُ أَنْ أُصيبَ في رَقَبَتِهِ كَما يُصابُ الجَمَلُ ، ويَأْسى أَنْ تَكونَ نِهايَتُهُ في بَيْتِ امْرَأَةٍ مِنْ بَني سَلولٍ ، الَّذينَ لَمْ يُعْرَفْ عَنْهُمْ غَيْرُ اللُّؤْمِ والدَّناءَةِ !

وغَيَّبَهُ صَحْبُهُ في أَرْضٍ غَيْرِ أَرْضِهِ ، وبَيْنَ قَوْمٍ غَيْرِ أَهْلِهِ ؛ جَزاءً وِفاقًا على ما أَضْمَرَهُ لِلرَّسولِ ﷺ مِنْ شَرٍّ ، وما صَنَعَهُ بِالمُسْلِمينَ عِنْدَ بِئْرِ مَعونَةَ مِنْ قَبْلُ : فَقَدْ قَدِمَ « أَبو البَراءِ » على الرَّسولِ ﷺ في السَّنَةِ الرّابِعَةِ مِنَ

الهِجْرَةِ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ الرَّسولُ الأَمينُ الإسْلامَ ، فَأَبى أَنْ يُسْلِمَ ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَبْعُدْ عَنِ الإسْلامِ كَثيرًا ، ثُمَّ قالَ :

« يا مُحَمَّدُ ، لَوْ أَرْسَلْتَ بَعْضَ أَصْحابِكَ إلى أَهْلِ نَجْدٍ يَدْعونَهُمْ إلى الإسْلامِ ، فَلَعَلَّهُمْ يَهْتَدونَ . »

فَأَجابَهُ الرَّسولُ الأَمينُ قائِلاً : « إنّي أَخْشى عَلَيْهِمْ أَهْلَ نَجْدٍ . »

فَقالَ أَبو البَراءِ : « أَرْسِلْهُمْ وأَنا لَهُمْ جارٌ . »

فَأَرْسَلَ الرَّسولُ ﷺ جَماعَةً مِنْ خِيارِ المُسْلِمينَ ، تَبْلُغُ عِدَّتُهُمْ أَرْبَعينَ أَوْ سَبْعينَ ، يُعْرَفونَ بِالقُرّاءِ . كانوا يَحْتَطِبونَ بِالنَّهارِ ، ويُصَلّونَ بِاللَّيْلِ . فَلَمّا بَلَغوا مَكانًا يُسَمّى « بِئْرَ مَعونَةٍ » - بَعَثوا واحِدًا مِنْهُمْ بِكِتابِ رَسولِ اللهِ ﷺ إلى « عامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ » ، فَلَمْ يَأْخُذِ الكِتابَ ، ولَمْ يَنْظُرْ فيهِ ، وإنَّما عَدا على الرَّجُلِ فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ اسْتَصْرَخَ عَلَيْهِمْ أَهْلَ نَجْدٍ ؛ فَأَبَوْا أَنْ يُجيبوهُ ، وقالوا : « لا نَنْقُضُ

ذِمَّةَ أَبي البَراءِ ، وقَدْ عقَدَ لَهُمْ عَهْدًا ، وأَعْطاهُمْ مِيثاقًا . »

فاسْتَعْدَى عَلَيْهِمْ بَني سُلَيْم ؛ فَأَجابوهُ ، وأَحاطوا بالْمُسْلِمينَ ، وقَتَلوهُمْ جَميعًا إلا « كَعْبَ بْنَ زَيْد » ، تَرَكوهُ وفيهِ رَمَقٌ ، وقَدْ ماتَ شَهيدًا في غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ .

* * *

شَهِدَ « أَرْبَدُ » نِهايَةَ صاحِبِهِ « عامِرٍ » ؛ فَزُلْزِلَتْ أَعْماقُهُ زِلْزالاً شَديدًا ، واضْطَرَبَتْ نَفْسُهُ اضْطِرابًا عَنيفًا ، وأَيْقَنَ أَنَّهُ هالِكٌ لا مَحالَةَ ، وأَنَّ هَلاكَهُ سَيَكونُ بَشِعًا شَنيعًا كَصاحِبِهِ ، فَغَدا خائِفًا جَزِعًا ، يُحِسُّ الْمَوْتَ يَتَرَصَّدُهُ في كُلِّ خُطْوَةٍ ، ويَسُدُّ عَلَيْهِ الْمَسالِكَ والْمَنافِذَ ؛ ولَكِنَّهُ حاوَلَ أَنْ يُدارِيَ اضْطِرابَهُ ، ويُخْفِيَ هَلَعَهُ وجَزَعَهُ ، ويَبْدُوَ أَمامَ قَوْمِهِ شُجاعًا قَوِيًّا حينَ بَلَغَ أَرْضَهُمْ ، وأَتَوْهُ يَسْأَلونَهُ ما وَراءَهُ .

فَقالَ لَهُمْ : « لا شَيْءَ . لَقَدْ دَعانا مُحَمَّدٌ إلى شَيْءٍ وَدِدْتُ أَنْ لَوْ كانَ عِنْدِي الآنَ فَأَرْمِيهُ بِالنَّبْلِ حَتّى أَقْتُلَهُ . »

وظَلَّ خائِفًا يَتَرَقَّبُ ، لا يَكادُ يُفارِقُ دارَهُ ؛ جَزَعًا مِمّا يَتَرَصَّدُهُ ويَتَرَبَّصُ بِهِ . ولَكِنَّ جَمَلاً مِنْ جِمالِهِ قَطَعَ زِمامَهُ ، وأَسْرَعَ هارِبًا ؛ فَخَشِيَ « أَرْبَدُ » ضَياعَ مالِهِ ، وغَطّى حُبُّهُ لِلْمالِ خَوْفَهُ مِنَ الهَلاكِ - فَأَسْرَعَ يَتْبَعُ الْجَمَلَ لِيَسْتَعيدَهُ ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِ وعَلى جَمَلِهِ صاعِقَةً أَحْرَقَتْهُما مَعًا !

وصَدَقَ اللهُ العَظيمُ الَّذي ﴿ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلونَ في اللهِ وَهُوَ شَديدُ الْمِحالِ ﴾ (الرَّعد ١٣) .

قالوا إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فيهِ .

* * *

مَبْعوثُ الرَّسول
حَبِيبُ بْنُ زَيْد

مَدَّ يَدَهُ الصَّغيرةَ في جُنْحِ الظَّلامِ وبايَعَ رَسولَ اللهِ ﷺ عَلى المَنَعَةِ والنُّصْرَةِ !

كانَ ذَلِكَ في بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثّانِيَةِ ، وكانَ مَعَ أُمِّهِ « نَسيبَةَ بِنْتِ كَعْبٍ المازِنِيَّةِ » ، وأَبيهِ « زَيْدِ بْنِ عاصِمٍ » ، وأَخيهِ الأَكْبَرِ مِنْهُ « عَبْدِ اللهِ » .

ومُنْذُ ذَلِكَ الحينِ نَفَذَ الإيمانُ إلى قَلْبِهِ ، واسْتَقَرَّ في حَنايا نَفْسِهِ ، وأَصْبَحَ الرَّسولُ ﷺ أَحبَّ إلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ ، وغَدا الإسْلامُ أَعَزَّ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ .

وشَبَّ « حَبيبُ بْنُ زَيْدٍ » في جَوٍّ تَضوعُ فيهِ نَفَحاتُ الإسْلامِ ؛ ويَزْكو فيهِ شَذا الإيمانِ . ويُبْصِرُ أُمَّهُ وقَدْ

حَمَلَتِ السِّلاحَ دِفاعًا عَنِ الرَّسولِ الأَمينِ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وأَخاهُ « عَبْدَ اللهِ » وقَدْ جَعَلَ نَحْرَهُ دونَ نَحْرِ رَسولِ اللهِ في تِلْكَ الغَزْوَةِ ، حَتّى قالَ فيهِمْ رَسولُ اللهِ ﷺ : « بارَكَ اللهُ فيكُمْ أَهْلَ بَيْتٍ . » و قالَ لـ « نَسيبَةَ » وهي تَحُثُّ ابْنَها « عَبْدَ اللهِ » عَلى المُثابَرَةِ في القِتالِ : « مَنْ يُطيقُ ما تُطيقينَ ، يا أُمَّ عِمارَةَ ! »

في هَذا الجَوِّ الإيمانِيِّ الخالِصِ ، نَما « حَبيبٌ » وتَرَعْرَعَ . ولَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا ولا أُحُدًا ؛ لأَنَّهُ كانَ صَغيرَ السِّنِّ ، لا يَسْتَطيعُ حَمْلَ السِّلاحِ ، والصَّبْرَ عَلى مَشَقّاتِ القِتالِ . لَكِنَّهُ شَهِدَ المَشاهِدَ كُلَّها بَعْدَ ذَلِكَ ، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ ، ولَمْ يُقَصِّرْ في جِهادٍ ، وإنَّما أَبْلى بَلاءً حَسَنًا في كُلِّ مَوْقِعٍ ، ونافَحَ عَنِ الإسْلامِ ورَسولِهِ ما اسْتَطاعَ إلى ذَلِكَ سَبيلاً !

وكَأَنَّما كانَتِ العِنايَةُ الإلَهِيَّةُ تُعِدُّهُ لِيَوْمٍ عَصيبٍ ، ومَوْقِفٍ شَديدٍ ، لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلا مَنْ كَلأَهُمُ اللهُ بِرِعايَتِهِ ،

وشَمِلَهُمْ بِحِفْظِهِ ، وأَحاطَهُمْ بِعِنايَتِه .

ذَلِكَ أَنَّهُ في التّاسِعَةِ مِنَ الهِجْرَةِ ، قَدِمَ وَفْدٌ مِنْ بَني حَنيفَةَ فيهِمْ مُسَيْلِمَةُ إلى الْمَدينَةِ ، فَأَتَوْا رَسولَ اللهِ ﷺ ، وخَلَّفوا مُسَيْلِمَةَ في رِحالِهِمْ ، يَحْفَظُها لَهُمْ . فَلَمّا دَخَلوا على الرَّسولِ الأَمينِ ، وأَعْلَنوا إِسْلامَهُمْ ، ذَكَروا لَهُ مَكانَ مُسَيْلِمَةَ ، وقالوا : « يا رَسولَ اللهِ ، إِنّا قَدْ خَلَّفْنا صاحِبًا لَنا في رِحالِنا يَحْفَظُها لَنا . » فَأَمَرَ الرَّسولُ الكَريمُ لَهُ بِجائِزَةٍ أَوْ عَطِيَّةٍ مِثْلِ ما أَمَرَ بِهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ .

وما كادَ الوَفْدُ يَرْجِعُ إلى بِلادِهِ أَرْضِ اليَمامَةِ - حَتّى ارْتَدَّ مُسَيْلِمَةُ عَنِ الإِسْلامِ . ضاقَ صَدْرُهُ بِهِ حَسَدًا وغَيْظًا ، وأَذاعَ في قَوْمِهِ أَنَّ اللهَ قَدْ أَشْرَكَهُ مَعَ مُحَمَّدٍ في النُّبُوَّةِ ، وجَعَلَ يَسْجَعُ لَهُمُ الأَسْجاعَ ، ويَزْعُمُ لَهُمْ أَنَّ الوَحْيَ نَزَلَ عَلَيْهِ بِها كَما نَزَلَ على مُحَمَّدٍ بِالقُرْآنِ ، وأَحَلَّ لَهُمْ ما حَرَّمَهُ الإِسْلامُ ، كَالخَمْرِ ، ورَفَعَ عَنْهُمُ الصَّلاةَ - فَالْتَفَّ حَوْلَهُ كَثيرٌ مِنْ قَوْمِهِ بَني حَنيفَةَ حَمِيَّةً وعَصَبِيَّةً ،

حَتّى إِنَّ أَحَدَهُمْ كانَ يَقولُ : « واللهِ ، إِنَّ مُحَمَّدًا لَصادِقٌ ، وإِنَّ مُسَيْلِمَةَ لَكاذِبٌ ، ولَكِنَّ كَذّابَ رَبيعَةَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ صادِقِ مُضَرَ . » يَعْني بِرَبيعَةَ القَبيلَةَ الَّتي يَنْتَسِبُ إِلَيْها مُسَيْلِمَةُ ، وبِمُضَرَ القَبيلَةَ الَّتي يَنْتَسِبُ إِلَيْها رَسولُ اللهِ ﷺ .

ولَمّا اشْتَدَّ أَمْرُ مُسَيْلِمَةَ ، وكَثُرَ أَتْباعُهُ مِنْ قَوْمِهِ - تَوَقَّحَ ، وأَرْسَلَ إلى النَّبِيِّ ﷺ كِتابًا مَعَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَتْباعِهِ ، يَقولُ فيهِ لِلرَّسولِ ﷺ : إِنَّ اللهَ قَدْ أَشْرَكَهُ مَعَهُ في الأَمْرِ ، وإِنَّ لَهُ نِصْفَ الأَرْضِ ، ولِقُرَيْشٍ نِصْفُها ، ولَكِنَّ قُرَيْشًا قَوْمٌ ظالِمونَ .

فَسَأَلَ الرَّسولُ ﷺ الرَّجُلَيْنِ : « وماذا تَقولانِ أَنْتُما ؟ »

فَأَجاباهُ : « نَقولُ كَما قالَ . »

فَقالَ الرَّسولُ الكَريمُ : « واللهِ ، لَوْلا أَنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لَأَمَرْتُ بِضَرْبِ عُنُقَيْكُما . »

ثُمَّ كَتَبَ رِسالَةً إلى مُسَيْلِمَةَ يَقولُ فيها :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم ،

« مِنْ مُحمَّد رَسول اللهِ إلى مُسَيْلمَةَ الكَذّاب ،

« السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبعَ الهُدى ، أمّا بَعْدُ . .

« فَإنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقينَ . »

وبَعَثَ بِها مَعَ الرَّجُلَيْنِ .

* * *

لَمْ يَرْعَوِ مُسَيْلِمَةُ ، ولَمْ يَعُدْ إلى رُشْدِهِ ، بَلِ ازْدادَ شَرُّهُ ، وكَبُرَ خَطَرُهُ ، وتَفاقَمَ أَمْرُهُ . فَأَرادَ الرَّسولُ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ إلَيْهِ رِسالةً يَزْجُرُهُ فيها عَنْ غَيِّهِ ، ويُنَبِّهُهُ إلى ضَلالِهِ ، ويَنْهاهُ عَنِ التَّمادي فيهِ ، فَإنَّ ذَلِكَ يُورِدُهُ المَهالِكَ ، ويُحَمِّلُهُ وِزْرَ الَّذينَ يُضِلُّهُمْ بِضَلالِهِ . واخْتارَ الرَّسولُ ﷺ شابًّا فَتِيًّا قَوِيًّا صابِرًا لِحَمْلِ هَذِهِ الرِّسالَةِ . كانَ هَذا الشّابُّ الفَتِيُّ هُوَ « حَبيبَ بْنَ زَيْدٍ » .

ومَضى « حَبيبٌ » إلى ما أَمَرَهُ الرَّسولُ ﷺ بِهِ ، يُسْرِعُ في طَرِيقِهِ ما وَجَدَ إلى الإسْراعِ سَبيلاً ، تَرْفَعُهُ نِجادُ الصَّحْراءِ وتِلالُها ، وتَحُطُّهُ سُهولُها و وِهادُها - حَتّى بَلَغَ أَرْضَ اليَمامَةِ ، وأَلْقى الرِّسالَةَ إلى مُسَيْلِمَةَ .

قَرَأَ مُسَيْلِمَةُ الرِّسالَةَ ، فاسْتَشاطَ غَضَبًا ، وازْدادَ حِقْدًا ، وتَميَّزَ غَيْظًا ، وقَدَحَتْ عَيْناهُ بِالشَّرَرِ والغَدْرِ ، وأَمَرَ بِأَنْ يُقَيَّدَ « حَبيبٌ » ويُحْبَسَ ، ويُؤْتى بِهِ إلى مَجْلِسِهِ في ضُحى الغَدِ .

ولَمّا كانَ الغَدُ جَمَعَ مُسَيْلِمَةُ كِبارَ أَتْباعِهِ ، وجَلَسَ في صَدْرِ المَجْلِسِ وهُمْ مِنْ حَوْلِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ يُحْضَرَ صاحِبُ مُحَمَّدٍ ، فَجِيءَ بِهِ تُثْقِلُهُ القُيودُ ، وتُبْطِئُ حَرَكَتَهُ ، ولَكِنَّهُ رافِعُ الرَّأْسِ في كِبْرِياءَ ، شامِخُ الأَنْفِ في عِزَّةٍ وإباءٍ ، لا يَخْشى القَوْمَ ولا يَهابُهُمْ ، قَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ السَّكينَةَ ، ومَلأَ صَدْرَهُ بِالطُّمَأْنينَةِ ، حَتّى إنَّ القَوْمَ في مَجْلِسِ مُسَيْلِمَةَ تَهَيَّبوهُ ، وفي قُلوبِهِمْ أَجَلّوهُ وعَظَّموهُ ،

وَلَوْلا خَوْفُهُمْ مِنْ بَطْشِ مُسَيْلِمَةَ بِهِمْ - لَصَرَّحوا بِذَلِكَ وَأعْلَنوهُ !

وَقَفَ « حبيبٌ » وَسَطَ هَذا الْجَمْعِ الْمُحْتَشِدِ ، مُنْتَصِبَ القامَةِ كالرُّمْحِ ، فالْتَفَتَ إلَيْهِ مُسَيْلِمَةُ ، وقالَ لَهُ :

« أتَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ ؟ »

فَأجابَهُ « حَبيبٌ » : « نَعَمْ ، أشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ . »

فكادَ صَدْرُ مُسَيْلِمَةَ يَنْفَجِرُ مِنْ شِدَّةِ الغَيْظِ ، وقالَ لَهُ :

« وتَشْهَدُ أنّي رَسولُ اللهِ ؟ »

فَأمالَ « حَبيبٌ » أُذُنَهُ ، وقالَ في نَبْرَةٍ تَشيعُ فيها السُّخْرِيَةُ : « إنَّ بي صَمَمًا ، فَلَمْ أَسْمَعْ ما قُلْتَ . »

فاكْفَهَرَّ وَجْهُ مُسَيْلِمَةَ ، وَنَفَرَتْ عُروقُهُ مِنْ شِدَّةِ الغَضَبِ والضّيقِ ، وقالَ لِلْجَلادِ : « اِقْطَعْ قِطْعَةً مِنْ جَسَدِهِ . »

وأَهْوى الجَلادُ بِسَيْفِهِ عَلى جَسَدِ « حَبيبٍ » ، فَقَطَعَ مِنْهُ قِطْعَةً تَدَحْرَجَتْ عَلى الأَرْضِ !

ثُمَّ أَعادَ مُسَيْلِمَةُ السُّؤالَ نَفْسَهُ : « أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ ؟ »

فَأَجابَ حَبيبٌ : « نَعَم ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ . »

قالَ مُسَيْلِمَةُ في ضيقٍ : « وَتَشْهَدُ أَنّي رَسولُ اللهِ ؟ »

فَأَجابَ « حَبيبٌ » في سُخْرِيَةٍ لاذِعَةٍ : « إنَّ بي صَمَمًا فَلَمْ أَسْمَعْ ما تَقولُ . »

و أَمَرَ مُسَيْلِمَةُ جَلّادَهُ بِأَنْ يَقْطَعَ قِطْعَةً مِنْ جَسَدِ « حَبيبٍ » - فَفَعَلَ ، والنّاسُ يَنْظُرونَ إلى « حَبيبٍ » وَيَعْجَبونَ ، وَيَسْتَوْلي عَلَيْهِمُ الذُّهولُ مِنْ هَذا الإيمانِ القَوِيِّ الرّاسِخِ ، الَّذي لا يَتَزَعْزَعُ ولا يَلينُ ، وهَذا الثَّباتِ في العَقيدَةِ الَّذي لا يَضْعُفُ ولا يَسْتَكينُ .

وظلَّ « مُسَيْلِمَةُ » يُعاوِدُ سُؤالَهُ ، و « حَبيبٌ » رضي الله عنه يُعاوِدُ جَوابَهُ ، والجَلّادُ - بِأَمْرِ سَيِّدِهِ - يُعاوِدُ فِعْلَهُ ، حَتّى فاضَتْ روحُ « حَبيبٍ » ، واسْمُ الرَّسولِ ﷺ يَتَرَدَّدُ على شَفَتَيْهِ الطّاهِرَتَيْنِ !

لَمْ تَجْزَعْ أُمُّهُ « نَسيبَةُ » حينَ بَلَغَها الْخَبَرُ ، وقالَتْ :

« لِمِثْلِ هَذا اليَوْمِ أَعْدَدْتُهُ ! وعِنْدَ اللهِ احْتَسَبْتُهُ . »

لَقَدْ بايَعَ الرَّسولَ ﷺ يَوْمَ العَقَبَةِ صَغيرًا ، ووَفّى بِبَيْعَتِهِ كَبيرًا !

وأَقْسَمَتْ لَئِنْ أَمْكَنَها اللهُ مِنْ عَدُوِّهِ ؛ لَتَجْعَلُ بَناتِهِ يَلْطِمْنَ عَلَيْهِ الْخُدودَ !

وجاءَ اليَوْمُ الَّذي تَمَنَّتْهُ « نَسيبَةُ » وانْتَظَرَتْهُ ؛ فَقَدْ وَجَّهَ الْخَليفَةُ أَبو بَكْرٍ جُيوشَ الْمُسْلِمينَ لِقِتالِ الْمُرْتَدّينَ ، وخَرَجَتْ « نَسيبَةُ » - عَلى الرَّغْمِ مِنْ تَقَدُّمِها في السِّنِّ - ومَعَها ابْنُها عَبْدُ اللهِ ، في الْجَيْشِ الزّاحِفِ إلى بَني حَنيفَةَ

لِقِتالِ مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ .

وحينَ انهارَتْ حُصونُ حَديقَةِ الْمَوْتِ (١) ، الَّتي كانَ يَحْتَمي بِها مُسَيْلِمَةُ ، أَمامَ سُيوفِ الْمُجاهِدينَ - انْطَلَقَتْ « نَسيبَةُ » في قُوَّةٍ وحَماسٍ إلى حَيْثُ يوجَدُ مُسَيْلِمَةُ ، فَوَجَدَتْ سُيوفَ الْمُسْلِمينَ ، وفيهِمْ ابْنُها عَبْدُ اللهِ ، قَدْ سَبَقَتْها إلَيْهِ ، تَنْهَلُ مِنْ دِمائِهِ ؛ فَطابَتْ بِذَلِكَ نَفْسًا ، وقَرَّتْ عَيْنًا .

لَقَدِ انْتَقَمَ اللهُ - عَزَّ و جَلَّ - لِفَتاها ، وأَدْرَكَتْ مِنْ قاتِلِهِ مُبْتَغاها ، وبَرَّتْ بِقَسَمِها ، ومَضى مُسَيْلِمَةُ إلى ما قَدَّرَ اللهُ لَهُ مِنْ سَعيرِ جَهَنَّمَ ، وبِئْسَ الْمَصيرُ !

* * *

(١) انظر حديثها في كتابنا « الباحث عن الحقّ » من هذه السّلسلة .

الحِبُّ وابنُ الحِبِّ

أسامةُ بْنُ زيدٍ

قبْلَ الهجْرَةِ النَّبويَّةِ بستِّ سَنواتٍ أو بسَبْعٍ ، بَيْنما كانَ الرَّسولُ ﷺ جالسًا ، تُثْقِلُهُ هُمومُ الدَّعْوَةِ الَّتي كَلَّفَهُ اللهُ بتَبْليغِها إلى النّاسِ ، ويُؤرِّقُهُ ما يُقيمُهُ الْمُشْركونَ في طَريقِها مِنْ صعابٍ وعقَباتٍ ، وما يَصُبُّونَهُ عَلى الْمُؤْمنينَ بها مِنْ تَعْذيبٍ وتَنْكيلٍ – إذا خَبَرٌ يَأْتيهِ فيَنْشرِحُ بِهِ صَدْرُهُ ، وتَنْبَسِطُ لَهُ أساريرُهُ ، و يُشْرِقُ بالفَرْحَةِ وَجْهُهُ . ذَلِكَ أنَّ « أُمَّ أيْمَنَ » وَضَعَتْ غُلامًا !

و « أُمُّ أيْمَنَ » هَذِهِ هِيَ « بَركَةُ الحَبَشيَّةُ » الَّتي كانَتْ جارِيَةً عِنْدَ « آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ » أُمِّ الرَّسولِ ﷺ ، شَهِدَتْ مَوْلِدَهُ ، وكانَتْ حاضِنَتَهُ بَعْدَ أُمِّهِ ، وأَحَبَّتْهُ حُبًّا مَلَكَ

عَلَيْها قَلْبَها ، ومَلأَ أَقْطارَ نَفْسِها ، وبادَلَها هُوَ حُبًّا بحُبٍّ ، وكانَ يَقولُ عَنْها : « هِيَ أُمّي بَعْدَ أُمّي ، وهِيَ بَقِيَّةُ أَهْلِ بَيْتي » .

وكانَ ﷺ يَقولُ لأَصْحابِهِ بَعْدَ أنْ ماتَ عَنْها زَوْجُها « عُبَيْدُ بْنُ زَيْدٍ » الَّذي أَنْجبَتْ مِنْهُ « أَيْمَنَ » ، وبِهِ كانَتْ كُنْيَتُها – كانَ يَقولُ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَلْيَتزَوَّجْ أُمَّ أَيْمَنَ . » فَتزَوَّجَها « زَيْدُ بْنُ حارِثَةَ »[١] ، ومِنْهُ أَنْجبَتْ هَذا الغُلامَ الَّذي سُرَّ بِهِ رَسولُ اللهِ ﷺ سُرورًا بالغًا ، ومَلأَتِ البَهْجَةُ بِهِ جَوانِبَ نَفْسِهِ ، حَتّى فاضَتْ عَلى وَجْهِهِ .

و « زَيْدٌ » هَذا هُوَ الَّذي تَبَنّاهُ الرَّسولُ ﷺ قَبْلَ الإسْلامِ ، وصاحِبُهُ ومَوْضِعُ سِرِّهِ ، ومِنْ أَحَبِّ أَهْلِهِ إلَيْهِ ، حَتّى عُرِفَ بَيْنَ الْمُسْلِمينَ بأَنَّهُ « حِبُّ رَسولِ اللهِ » ، فَلا عَجَبَ أَنْ كانَتْ فَرْحَةُ الرَّسولِ ﷺ بمَوْلِدِ « أُسامَةَ بْنِ زَيْدٍ »

(١) انْظُر سيرَتَهُ في كِتابِنا « سابِق الحَبَشَة » مِنْ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ .

غامِرةً ، و كَذَلِكَ كانَتْ فَرْحَةُ الْمُسْلِمِينَ و بَهْجَتُهُم بِمَوْلِدِهِ ؛ لأَنَّ كُلَّ ما يُفرِحُ الرَّسولَ ، ويُدْخِلُ البَهْجَةَ على نَفْسِهِ - يُفرِحُهُمْ ويُدْخِلُ البَهْجَةَ على نفوسِهِمْ . ومِنْ ثَمَّ أَطْلَقوا على هَذا المَوْلود « الحِبُّ وابنُ الحِبِّ » .

ولَمْ تكُنْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُبالَغَةٌ في هَذا اللَّقَبِ الَّذي أطْلَقوهُ ؛ فقدْ أحبَّهُ الرَّسولُ ﷺ حُبًّا جمًّا ، حُبًّا يَغْبِطُهُ عَلَيْهِ النّاسُ أَجْمَعونَ .

لَقَدْ بَلَغَ مِنْ حُبِّهِ ﷺ لَهُ أَنَّهُ عَثَرَ ذاتَ مَرَّةٍ بِعَتَبَةِ الباب ، فَشُجَّتْ جَبْهَتُهُ ، وسالَ مِنْها الدَّمُ ، فَأشارَ النَّبِيُّ ﷺ لِعائِشَةَ أَنْ تُزيلَ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، فَلَمْ تَطِبْ نَفْسُها بِذَلِكَ ، فَنَهَضَ ﷺ وَأَخَذَ يَمُصُّ الدَّمَ بِفَمِهِ ، ثُمَّ يَمُجُّهُ ، وهُوَ يُرَبِّتُ كَتِفَهُ ، ويُطَيِّبُ خاطِرَهُ بِكَلِماتٍ تَفيضُ رِقَّةً وعُذوبَةً .

ولَكِنَّها - رَضِيَ اللهُ عَنْها - لَمّا سالَ مِنْهُ المُخاطُ ذاتَ مَرَّةٍ ، وهَمَّ الرَّسولُ ﷺ أَنْ يَمسَحَهُ ، قالَتْ لَهُ : « دَعْهُ لي

يا رَسولَ اللهِ . »

فَقالَ لَها الرَّسولُ الكَريمُ : « يا عائِشَةُ ، أَحِبّيهِ فَإِنّي أُحِبُّهُ . »

***

وحينَ بَلَغَ « أُسامَةُ » أَوَّلَ الشَّبابِ بَدَتْ عَلَيْهِ مَخايِلُ النَّجابَةِ و الذَّكاءِ ، و القُدْرَةِ على تَصْريفِ الأُمورِ ، و وَضْعِ كُلِّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ الدَّقيقِ ، كما تَجَلَّتْ في سُلوكِهِ الخِصالُ الرَّفيعَةُ ، والشَّمائِلُ النَّبيلَةُ ، فَأَلِفَهُ الْمُسْلِمونَ كَما أَلِفَهُمْ ، وغَدا خَليقًا بِهَذا الحُبِّ الجَليلِ ، الَّذي مَحَضَهُ الرَّسولُ ﷺ إيّاهُ ، وهَذِهِ المَوَدَّةَ الصّافِيَةَ الَّتي اخْتَصَّهُ بِها ، وكانَ بِها حَفِيًّا ، وعَلَيْها حَريصًا ، فَنَذَرَ نَفْسَهُ للهِ ولِرَسولِهِ ، والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ ، والعَمَلِ على إعْلاءِ كَلِمَتِهِ . فَما إنْ رَأَى الْمُسْلِمينَ يَتَجَهَّزونَ لِغَزْوَةِ أُحُدٍ - حَتّى أَقْبَلَ على الرَّسولِ القائِدِ في جَماعَةٍ مِنْ صِبْيانِ الْمُسْلِمينَ ، وقَدْ تَقَلَّدوا سُيوفَهُمْ ، ولَبِسوا

دُروعَهُمْ ، يَلْتَمِسونَ مِنَ الرَّسولِ القائِدِ أَنْ يَقْبَلَهُمْ في صُفوفِ الْمُجاهِدينَ ، فَقَبِلَ الرَّسولُ القائِدُ مِنْهُمْ مَنْ قَبِلَ ، ورَدَّ مَنْ وَجَدَهُ صَغيرًا ، لا يَتَحَمَّلُ مَشَقّاتِ الجِهادِ ، ولا يَنْهَضُ بِأَعْباءِ القِتالِ . وكانَ مِنْ بَيْنِ الْمَرْدودينَ « أُسامَةُ بْنُ زَيْدٍ » ، فَتَوَلَّى وعَيْناهُ تَفيضانِ مِنَ الدَّمْعِ حُزْنًا أَلا يَكونَ مَعَ الخارِجينَ !

وإذا كانَ الرَّسولُ القائِدُ قَدْ رَدَّهُ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، ولَمْ يُجِزْهُ لِلْقِتالِ - فَقَدْ قَبِلَهُ وأَجازَهُ في غَزْوَةِ الخَنْدَقِ . كانَتْ سِنُّهُ تَدْنو مِنَ الخامِسَةَ عَشْرَةَ ، و وَقَفَ مَعَ جَماعَةٍ مِنْ فِتْيانِ الْمُسْلِمينَ ، وأَخَذَ يَشِبُّ عَلى قَدَمَيْهِ لِتَبْدُوَ قامَتُهُ أَطْوَلَ مِمّا هِيَ عَلَيْهِ ، كَيْ يَرْضى عَنْهُ الرَّسولُ القائِدُ ، فَرَقَّ لَهُ الرَّسولُ ﷺ ، ولَمْ يَشَأْ أَنْ يَحْرِمَهُ مِنْ شَرَفِ الجِهادِ تَحْتَ رايَتِهِ .

ومُنْذُ ذَلِكَ الحينِ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ في غَزْوَةٍ ، فَكانَ تَحْتَ رايَتِهِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وكانَ مِنْ بَيْنِ

القِلَّةِ الصّابِرَةِ الَّتي ثَبَتَتْ مَعَ الرَّسولِ القائِدِ يَوْمَ حُنَيْنٍ ، فاسْتَطاعَ الرَّسولُ القائِدُ بِهَذِهِ الفِئَةِ الصَّغيرَةِ الباسِلَةِ أَنْ يُحَوِّلَ الهَزيمَةَ نَصْرًا ، وأَنْ يَحْمِيَ الفارّينَ مِنْ أَنْ يَفْتِكَ بِهِمُ الْمُشْرِكونَ .

وشاءَ اللهُ لأُسامَةَ أَنْ يَحْمِلَ السَّيْفَ مُجاهِدًا تَحْتَ قِيادَةِ أَبيهِ في غَزْوَةِ مُؤْتَةَ ، وأَنْ يَشْهَدَ مَصْرَعَ أَبيهِ هُناكَ ، فَلَمْ تَضْعُفْ عَزيمَتُهُ ، ولَمْ تَهِنْ قُوَّتُهُ ، بَلْ أَبْلى بَلاءً حَسَنًا تَحْتَ قِيادَةِ جَعْفَرِ بْنِ أَبي طالِبٍ ، ثُمَّ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَواحَةَ ، ثُمَّ خالِدِ بْنِ الوَليدِ ، وعادَ إلى الْمَدينَةِ مَعَ الْمُجاهِدينَ ، بَعْدَ أَنِ احْتَسَبَ أَباهُ عِنْدَ اللهِ ، وأَوْدَعَهُ الثَّرى عَلى تُخومِ الشّامِ ، وكانَ يَرْكَبُ جَوادَهُ الَّذي اسْتُشْهِدَ عَلَيْهِ !

* * *

أَحَبَّ الرَّسولُ ﷺ أُسامَةَ بْنَ زَيْدٍ حُبًّا كَبيرًا ، وحَدَبَ عَلَيْهِ حَدَبًا عَظيمًا ، فَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ ، وعَدَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ . وأَحَبَّ أُسامَةُ الرَّسولَ ﷺ حُبًّا خالَطَ شَغافَ قَلْبِهِ ،

واسْتَقَرَّ في سُوَيْدائِهِ ، وجَرى في عُروقِهِ مَجْرى الدَّمِ ، فَغَدا لا يُطيقُ لَهُ فِراقًا ، ولا عَنْهُ ابْتِعادًا . ولَكِنَّ هَذا الحُبَّ الكَبيرَ العَظيمَ لَمْ يَحُلْ بَيْنَ الرَّسولِ ﷺ وبَيْنَ أَنْ يُؤَدِّبَ أُسامَةَ فَيُحْسِنَ تَأْديبَهُ ، ويُعَلِّمَهُ فَيُتْقِنَ تَعْليمَهُ ، ويُقَوِّمَهُ فَيُحْكِمَ تَقْويمَهُ ، ويَأْخُذَهُ بِالحَزْمِ حينَ لا يُجْدي اللّينُ ، ويَجْعَلَ مِنْهُ دَرْسًا ومَثَلاً لِلنّاسِ أَجْمَعينَ : سَرَقَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَني مَخْزومٍ ، وكانَ لِقَوْمِها شَرَفٌ و وَجاهَةٌ ، فَخافوا أَنْ يُقيمَ الرَّسولُ ﷺ عَلَيْها الحَدَّ ، ويَقْطَعَ يَدَها ؛ عُقوبَةً لَها عَلى سَرِقَتِها ، فَيَلْحَقَهُمْ بِذَلِكَ عارٌ كَبيرٌ . ولَبِثوا يَتَحاوَرونَ في أَمْرِها ويَتَشاوَرونَ ، ويُفَكِّرونَ فيمَنْ لَهُ جاهٌ عِنْدَ الرَّسولِ الكَريمِ ، يَسْتَطيعُ أَنْ يُكَلِّمَهُ في هَذا الأَمْرِ ؛ فَقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : « ومَنْ يَسْتَطيعُ ذَلِكَ غَيْرُ الحِبِّ ابْنِ الحِبِّ ؟»

وسَعَوْا إِلى « أُسامَةَ » يَعْرِضونَ عَلَيْهِ قَضِيَّتَهُمْ ، ويَبُثّونَهُ هَمَّهُمْ !

واسْتَجابَ « أُسامَةُ » لِرَجائِهِمْ ، وتَوَجَّهَ إِلى الرَّسولِ الحَبيبِ يَعْرِضُ عَلَيْهِ الأَمْرَ ؛ وإِذا الرَّسولُ الحَبيبُ يُغْضَبُ غَضَبًا شَديدًا ، حَتّى يَحْمَرَّ وَجْهُهُ من شِدَّةِ الغَضَبِ . وإِذا « أُسامَةُ » يَضْطَرِبُ اضْطِرابًا عَنيفًا ، وتَهْتَزُّ نَفْسُهُ اهْتِزازًا قَوِيًّا ، ويُحِسُّ أَنَّ الأَرْضَ تَكادُ تَميدُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ ، وأَنَّ الحُجْرَةَ تَدورُ بِهِ ، ويَكادُ يُغْشى عَلَيْهِ لِما يَراهُ مِنْ غَضَبِ الرَّسولِ الحَبيبِ ، الَّذي لَمْ يَكُنْ يَنْتَظِرُهُ ولا يَتَوَقَّعُهُ .

وفي غَمْرَةِ هَذا الحُزْنِ الَّذي مَلأَ قَلْبَ « أُسامَةَ » ، يَأْتيهِ صَوْتُ الرَّسولِ الحَبيبِ في نَبْرَةٍ حاسِمَةٍ حازِمَةٍ : « أَ تَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حُدودِ اللهِ ، يا أُسامَةُ ؟»

ثُمَّ خَطَبَ النّاسَ أَجْمَعينَ ، مُتَّخِذًا مِنْ هَذِهِ الحادِثَةِ الفَرْدِيَّةِ سَبيلاً إِلى تَقْريرِ مَبْدَإٍ إِسْلامِيٍّ جَليلٍ . قالَ :

« أَيُّها النّاسُ ، إِنَّما أَهْلَكَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، أَنَّهُمْ كانوا إِذا سَرَقَ فيهِمُ الشَّريفُ تَرَكوهُ . وإِذا سَرَقَ فيهِم

الفَقيرُ أَقاموا عَلَيْهِ الحَدَّ ! والَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ سَرَقَتْ فاطِمَةُ بِنْتُ مُحمَّدٍ - لأَقَمْتُ عَلَيْها الحَدَّ ! »

فَوضَعَ بِذلِكَ مَبْدَأَ المُساواةِ بَيْنَ النّاسِ جَميعًا أَمامَ القانونِ ، لا فَرْقَ بَيْنَ غَنِيٍّ و فَقيرٍ ، و لا بَيْنَ شَريفٍ وحَقيرٍ ، ولا بَيْنَ حاكِمٍ ومَحْكومٍ !

***

وفي السَّنَةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الهِجْرَةِ ، أَرادَ الرَّسولُ ﷺ أَنْ يَقْتَصَّ مِنَ الرّومِ ، وأَنْ يُعاجِلَهُمْ بِضَرْبَةٍ تُزَلْزِلُ نُفوسَهُمْ ، وتُعيدُ لِلْمُسْلِمينَ مَكانَتَهُمْ بَعْدَ غَزْوَةِ مُؤْتَةَ ؛ فَعَقَدَ اللِّواءَ لأُسامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، وأَمَرَهُ أَنْ يَسيرَ بِجَيْشِهِ إلى بِلادِ الشّامِ ، وقالَ لَهُ : « امْضِ عَلى اسْمِ اللهِ . »

وخَرَجَ أُسامَةُ بِلِوائِهِ مَعْقودًا ، وعَسْكَرَ في مَوْضِعٍ قَريبٍ مِنَ المَدينَةِ اسْمُهُ « الجُرْفُ » ، وكانَ في جَيْشِهِ كَثيرٌ مِنْ كِبارِ المُهاجِرينَ الأَوَّلينَ : كَعُمَرَ بْنِ الخَطّابِ ، وأَبي عُبَيْدَةَ بْنِ الجَرّاحِ ، وسَعْدِ بْنِ أَبي وَقّاصٍ ، وكَثيرٌ مِنَ

الأَنْصارِ . وكانَ رَسولُ اللهِ قَدِ اشْتَكى مِنَ الوَجَعِ الَّذي أَلَمَّ بِهِ ، فَدَخَلَتْ « أُمُّ أَيْمَنَ » تَقولُ لَهُ : « أَيْ رَسولَ اللهِ ، لَوْ تَرَكْتَ أُسامَةَ يُقيمُ في مُعَسْكَرِهِ حَتّى يَشْفيكَ اللهُ ؛ فَإِنَّ أُسامَةَ إِنْ خَرَجَ عَلى حالِهِ هٰذِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِنَفْسِهِ . »

فَقالَ الرَّسولُ ﷺ : « أَنْفِذوا بَعْثَ أُسامَةَ . »

وهَبَطَ « أُسامَةُ » إلى المَدينَةِ لِيَعودَ الرَّسولَ الحَبيبَ ، فَوَجَدَهُ قَدْ ثَقُلَ عَلَيْهِ المَرَضُ ، فَمالَ أُسامَةُ عَلَيْهِ وقَبَّلَهُ ، ورَسولُ اللهِ ﷺ لا يَتَكَلَّمُ ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إلى السَّماءِ ، ويَصُبُّهُما عَلى أُسامَةَ ، قالَ أُسامَةُ : « فَعَرَفْتُ أَنَّهُ كانَ يَدْعو لي . »

وفي اليَوْمِ التّالي أَصْبَحَ رَسولُ اللهِ ﷺ مُفيقًا ، وقَدِ اسْتَرَدَّ بَعْضَ عافِيَتِهِ ، فَخَرَجَ أُسامَةُ إلى مُعَسْكَرِهِ ، وأَمَرَ النّاسَ بِالرَّحيلِ . وبَيْنَما هُوَ يَسْتَعِدُّ ، أَتاهُ رَسولٌ مِنْ عِنْدِ « أُمِّ أَيْمَنَ » - رَضِيَ اللهُ عَنْها - يُخْبِرُهُ أَنَّ رَسولَ اللهِ يَموتُ ؛ فَقَفَلَ راجِعًا إلى المَدينَةِ ومَعَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ ،

وأبو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرّاحِ .

ولَمّا انتقلَ رَسولُ اللهِ ﷺ إلى بارئِهِ ، وبُويِعَ لأَبي بَكْرٍ رضي الله عنه - كانَ أَوَّلَ عَمَلٍ بَدأَ بِهِ إِنفاذُ جَيْشِ أُسامَةَ . وراجعَهُ بَعْضُ الصَّحابَةِ في ذَلِكَ ؛ لأَنَّ كَثيرًا مِنْ قَبائِلِ العَرَبِ بَدأَتْ تَرْتَدُّ عَنِ الإِسْلامِ ، وتَتَربَّصُ بِالْمَدينَةِ . فَلَوْ بَقِيَ الجَيْشُ في الْمَدينَةِ ؛ يَسْتَعينونَ بِهِ عَلى الْمُرْتَدِّينَ ، ويَحْرُسونَ بِهِ الْمَدينَةَ ، ولَكِنَّ أَبا بَكْرٍ رضي الله عنه أَبى أَنْ يَحُلَّ لِواءً عَقَدَهُ رَسولُ اللهِ ، وأَوْصى بِإِنْفاذِهِ .

ولَمّا رأى الْمُسْلِمونَ عَزْمَ الخَليفَةِ عَلى إِنفاذِ جَيْشِ أُسامَةَ - كَلَّمَ بَعْضُ الأَنْصارِ عُمَرَ رضي الله عنه في أَنْ يَطْلُبَ مِنَ الخَليفَةِ تَوْلِيَةَ الإِمارَةِ لِمَنْ هُوَ أَكْبَرُ سِنًا مِنْ أُسامَةَ . فَحَمَلَ عُمَرُ هَذِهِ الرَّغْبَةَ إِلى الخَليفَةِ أَبي بَكْرٍ ، فَوَثَبَ - وكانَ جالِسًا - وأَخَذَ بِلِحْيَةِ الفاروقِ ، وقالَ : « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ وعَدِمَتْكَ ، يا عُمَرُ ! اسْتَعْمَلَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ ، وتُريدُني أَنْ أَنْزِعَهُ ! واللهِ لا يَكونُ ذَلِكَ أَبَدًا ! »

فَخَرَجَ عُمَرُ إِلى النّاسِ ضائِقَ الصَّدْرِ ، و قالَ لَهُمْ : « امْضوا ، ثَكِلَتْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ ؛ فَقَدْ لَقيتُ ما لَقيتُ بِسَبَبِكُمُ اليَوْمَ مِنْ خَليفَةِ رَسولِ اللهِ ! »

وحينَ آذَنَ الجَيْشُ بِالرَّحيلِ ، وانْطَلَقَ بِقِيادَةِ أَميرِهِ الشّابِّ الَّذي لَمْ يَبْلُغِ العِشْرينَ بَعْدُ - خَرَجَ الخَليفَةُ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه يُوَدِّعُهُ ويُشَيِّعُهُ ، وكانَ ماشِيًا وأُسامَةُ فَوْقَ صَهْوَةِ جَوادِهِ ؛ فاسْتَحْيا « أُسامَةُ » وقالَ لَهُ : « لَتَرْكَبَنَّ يا خَليفَةَ رَسولِ اللهِ أَوْ لأَنْزِلَنَّ . »

فَرَدَّ عَلَيْهِ الصِّدّيقُ : « واللهِ لا نَزَلْتَ ولا رَكِبْتُ . وما عَلَيَّ أَنْ أُغَبِّرَ قَدَمَيَّ في سَبيلِ اللهِ ساعَةً . »

ثُمَّ قالَ لَهُ : « اغْزُ ، يا أُسامَةُ ، حَيْثُ أَمَرَكَ رَسولُ اللهِ ﷺ ؛ فَإِنَّ اللهَ سَيَكْفي ما تَرَكْتُ ، ولَكِنْ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَأْذَنَ لِعُمَرَ بْنِ الخَطّابِ يَبْقى مَعي ، أَسْتَشيرُهُ وأَسْتَعينُ بِهِ ، فَإِنَّهُ ذو رَأْيٍ ناصِحٍ لِلإِسْلامِ - فافْعَلْ . »

فَأَذِنَ لَهُ أُسامَةُ ، ومَضى بِجَيْشِهِ في سَبيلِ اللهِ ، كَما

أَمَرَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ .

وكانَ إنْفاذُهُ خيرًا وبركَةً على الإسْلامِ والمُسْلِمينَ ، فما مَرَّ الجَيْشُ بقَومٍ يُفكرونَ في الارْتِدادِ إلا قالوا : « لَوْلا أنَّ لِهؤُلاءِ القَوْمِ قُوَّةً ، وأنَّ عِنْدهُمْ عُدَّةً وعَتادًا – ما خرَجَ مِثْلُ هذا الجَيْشِ مِنْ عِنْدِهِمْ ، ولأَبْقَوْهُ يَحتمونَ بهِ . » ورجَعوا عمّا كانوا يُفكرونَ فيهِ ، وثَبتوا على الإسْلامِ .

ولَمّا بَلغَ أرْضَ الرّومِ كانَ مُفاجَأةً لهُمْ لمْ يَتوقَّعوها ، فقَتلَ مِنْهُمْ مَنْ قَتلَ ، وغَنِمَ ما شاءَ اللهُ لهُ أنْ يَغْنَمَ ، وعادَ ظافِرًا مَنْصورًا ، حتّى قيلَ : « ما رُئِيَ جَيْشٌ أسْلَمُ وأغْنَمُ مِنْ جَيْشِ أُسامَةَ بْنِ زَيْدٍ ! »

* * *

عاشَ « أُسامَةُ » ﵁ حتّى العامِ الرّابعِ والخَمْسينَ مِنَ الهِجْرَةِ النَّبويَّةِ ، وهُوَ مَوْضعُ إجْلالِ المُسْلِمينَ وتَقْديرِهِمْ ، لِمَكانَتِهِ مِنَ الرَّسولِ ﷺ ، ووَرَعِهِ وتَقواهُ ، حتّى إنَّ أميرَ المُؤْمِنينَ عُمَرَ ﵁ فرَضَ لهُ عَطاءً أكْثرَ مِمّا

فَرَضَهُ لابْنِهِ عَبْدِ اللهِ ، فَقالَ لَهُ ابْنُهُ : « يا أبَتِ ، فَرَضْتَ لأُسامَةَ أرْبَعَةَ آلافِ دِرْهَمٍ ، وفَرَضْتَ لي ثَلاثَةً ، و واللهِ ما سَبَقَني إلى مَشْهَدٍ ، وما كانَ لأبيهِ مِنَ الفَضْلِ أكْثَرَ مِمّا لَكَ . » فَأجابَهُ أَبوهُ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ : « لَقَدْ بَعُدْتَ عَنِ الصَّوابِ كَثيرًا ! لَقَدْ كانَ أبوهُ أَحَبَّ إلى رَسولِ اللهِ مِنْ أبيكَ ، وكانَ أُسامَةُ أَحَبَّ إلى رَسولِ اللهِ مِنْكَ ، فَقَدَّمْتُ حِبَّ رَسولِ اللهِ على حِبّي ! »

فَرَضِيَ عَبْدُ اللهِ بِما فَرَضَ لَهُ أَميرُ المُؤْمِنينَ ، واطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ .

وكانَ « عُمَرُ » ﵁ إذا لَقِيَهُ سَلَّمَ عَلَيْهِ بالإمارَةِ ، فإذا رَأى تَعَجُّبًا مِنْ بَعْضِ سامِعيهِ قالَ لَهُمْ :

« أَمَّرَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ عَلَيَّ ، وماتَ وهُوَ عَلَيَّ أَميرٌ . »

ويُذَكِّرُ المُسْلِمينَ بِقَوْلِ رَسولِهِمُ الكَريمِ في شَأْنِ أُسامَةَ : « أوصيكُمْ بِهِ ؛ فَإنَّهُ مِنْ صالِحيكُمْ . »

* * *

المحتويات

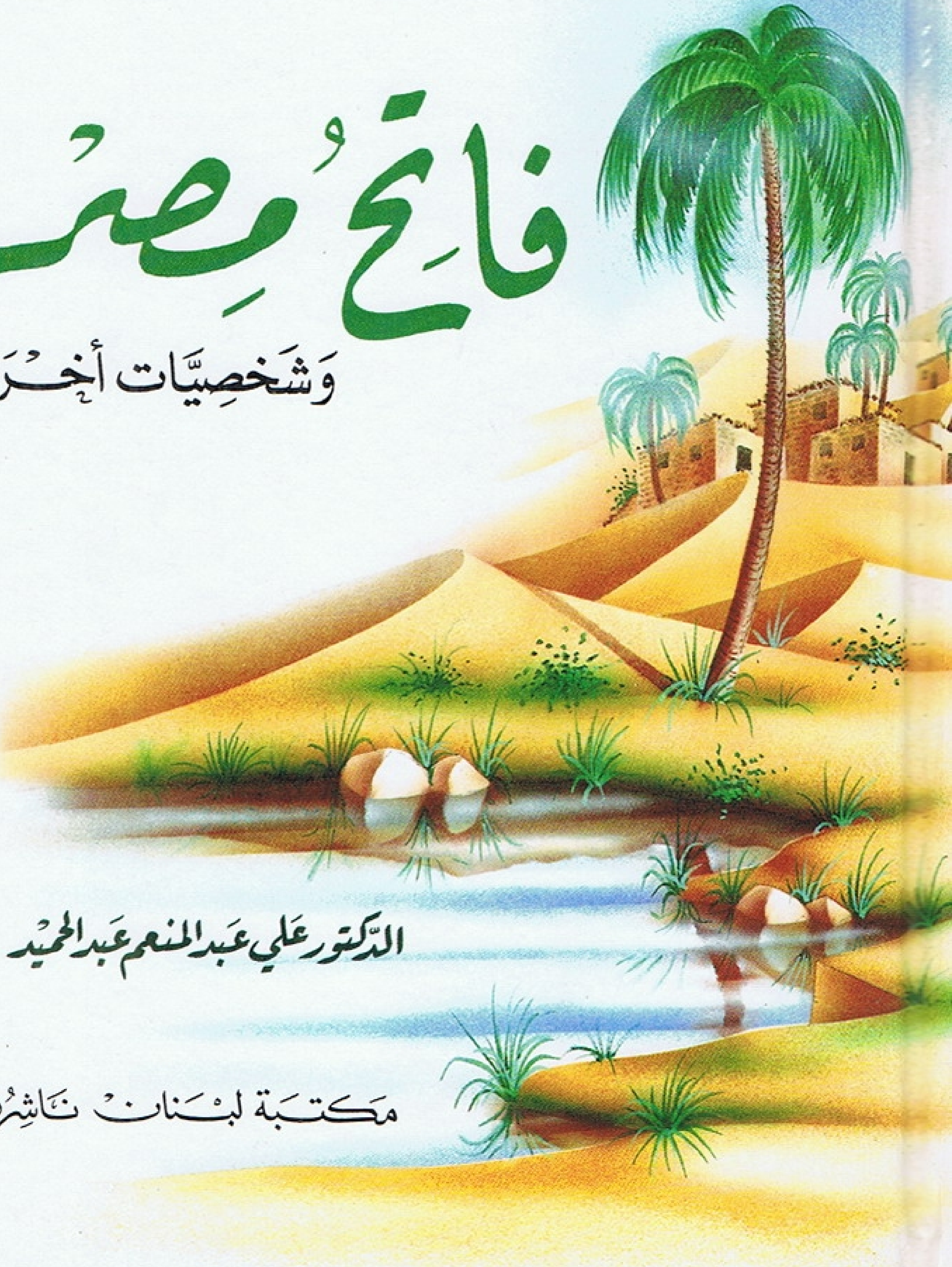
الصفحة

سلسلة رياض الإيمان

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

فاتح مصر

وشخصيات أخرى



الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون